الفصل الثالث

المراهقة العلمية ... والفوضى الفكرية

يقول برتراند رسل [1] :

*" إن ما يميز **الرجل الجاهل** هو سرعة تكوينه لآرائه واعتبارها أمورا مطلقة ، أما العالم فيمتاز ببطء الإعتقاد والإيمان والميل فى كلامه إلى التعديل والتحوير [2] " .*

فى الواقع ؛ تحتم رحلة البحث عن " **الحقيقة المطلقة** " (أو الرحلة العلمية لهذا الكتاب) تناول بعض الكتابات الفكرية الشائعة بالتحليل والنقد . فمثل هذه الكتابات العامة ، والتى يمكن أن تلقى صدى واضح فى نفوس قطاع كبير من الشباب والمثقفين ، يمكن أن تؤثر أو تشوه الرؤية العلمية والدينية معا لهذا الكتاب ، ما لم نلقى عليها الضوء الكافى حتى يمكن للقارىء ــ المتمعن ــ الإستمرار فى قراءة هذا الكتاب بدون إحتمالات ضياع الحقيقة منه ، أو حتى بدون إلقاء أى شبهة من ظلال الشك على ما يتضمنه ــ هذا الكتاب ــ من حقائق منذ البداية . وسوف أتخير ــ فى هذا الفصل ــ بعض نماذج من هذه الأفكار النمطية لدراستها لغرض إلقاء مزيد من الضوء الكاف عليها لرؤية الأخطاء الواردة فيها ، حتى وإن بدت فيها حسن نوايا الكُتّاب فى كثير من الأحيان ، وليس عدم الدراية الواضحة بمفهوم لدين والتدين فى أغلب الأحيان .

---

[1] أنظر تذييل رقم ٩ من الفصل السابق .

[2] تعرض **برتراند رسل** للهجوم عدة مرات لأنه قد غير من ارائه الفلسفية على مدى حياته الفكرية الطويلة . فعلى سبيل المثال ناقض **برتراند رسل** نفسه فى كتابه **مشكلات فلسفية** " ، الذى صدر فى عام ١٩١٢ ، حين قال أن للمعانى الكلية ــ مثلا ــ وجودا أوليا لا يقبل التحليل مما يدرج **رسل** فى زمرة **المثاليين** ، ثم عاد ليقول فى كتابه " **المعرفة البشرية** " ، الذى صدر فى عام ١٩٤٨ ، ما ينفى ذلك ..!!!

١ . المراهقة العلمية ... والفوضى الفكرية

ما أعنيه هنا بهذا العنوان هو بداية الرؤية العلمية لدى بعض المبتدئين فى العلم ، وليس فى هذا أدنى علاقة ... بسن الفرد أو تفكيره ، ولكن هو عدم إكتمال نضج الفرد العلمى ، ثم التسرع فى إتخاذ قرار ما ــ أو إتخاذ موقف فكرى معين ــ إزاء قضية فكرية معينة ، مما ينشأ عنه أو يؤدى إلى نوع من أنواع الفوضى الفكرية ــ بدون وعى ــ لدى الفرد وممن يستمعون إليه ، خصوصا إذا كان المستمعون على نفس درجة الثقافة أو أقل من مستوى ثقافة الفرد المتكلم فى هذا المجال .

وفى الحقيقة كنت قد أسميت هذا البند أولا بإسم " **المراهقة الفكرية ... والفوضى العلمية** " ، ولكنى خشيت أن يساء فهم جملة " **الفوضى العلمية** " ، حيث يمكن أن تفهم أو تؤول خطأ بأن العلم يحوى نوع من " **الفوضى** " أو " **الخطأ الفكرى** " . ولكن ما أعنيه هنا ؛ هو نوع الفوضى العلمية فى فكر الفرد ذاته ، نتيجة عدم نضوج فكره العلمى فحسب . أما العلم نفسه ــ فبديهى ــ يخلو من أى نوع من أنواع الفوضى الفكرية من قريب أوبعيد ، ولهذا آثرت العنوان المذكور على العنوان الثانى ، حتى لا يساء الفهم أو الخلط بين المعانى .

وربما خير مثال ، يمكن أن نبدأ به مناقشة مثل هذه الأفكار أو الآراء هو ما كتبه أحد المفكرين أو الكتاب المصريين فى أحدى مقالاته الشائعة ، **والتى تمثل إتجاها فكريا عاما أو إتجاها نمطيا يعتنقه كثير من الشباب اليوم** . حيث يقول سيادته فى هذا المقال [٣] :

" وأنا أكرر بأن العقل الإنسانى (إستراح) إلى أن للكون بداية ؟ نحن الذين نقول أن للكون له أول وله آخر .. وإننا نبذر البذور ونراها تنمو وتثمر وتموت .. وأن آباءنا ماتوا ومن قبلهم أجدادنا ونحن من بعدهم .. يعنى فى عالمنا نحن ، كل شىء له بداية وله نهاية ..!!

ولكن من الذى قال أن الكون يخضع لقوانين العقل الإنسانى ؟ من الذى قال أن الكون يمشى على هوانا ، وبمشورتنا وحسب منطقنا وشريعتنا ؟ من الذى قال ؟ نحن الذين قلنا . ونحن الذين صدقنا . ونحن الذين نصنع الكون على صورتنا . ولكن هذا الكون له منطق آخر ... لا نعرفه . فمن الممكن جدا أن يكون الكون بلا بداية ولا نهاية . هذا يبدو غريبا لنا . ولكن

---

[٣] " **جريدة الأهرام** " بتاريخ ٢٩ / ١ / ١٩٩٦ . تحت عنوان " **مواقف** " ، للكاتب المصرى " **أنيس منصور** " .

من قال ان كل شئ يبدو لنا غريبا ، يكون غير صحيح . من الذى قال أن الكون من أوله لاخره ، هذا الكون الذى لا نعرف ظلاله وضبابه ولحظات من عمره ، **هو خادم ذليل ذلـــول يـــأتمر بالعقل الإنسانى ؟ من الذى قال ؟ نحن الذين قلنا . غلطانون ؟ مؤكد . لماذا ؟ لأن الكون ليس من صنعنا . بل نحن من صنعه ..** فقد كان يوما ما ذرة .. هناك .. فـــوق .. وأن هـــذه الذرة تطوحت ضمن ملايين ملايين من الذرات فى عاصفة من الغازات والنيران والـــبرودة .. وإنها مثل ملايين ملايين الذرات قد تفاعلت ولسبب لا نعرفه دبت فيها الحياة .. كما حدث للنبات والحشرات والميكروبات .. ولسبب لا نعرفه تطورت الخلايا الحية إلى مالانهاية له من أشـــكال الحياة ..

فكل شئ على أرضنا كان هناك فوق .. من ألوف ملايين السنين .. لماذا ؟ طبعا هذا الســـؤال لا جواب عنه . ولا معنى له . فهو أكبر وأضخم وأعقد من أن يحله العقل الإنســـانى المحـــدود العمر والمعرفة والقدرة ..

ونحن الذين نتحدث عن كون واحد .. فنقول (هذا) الكون .. من قال أنه كون واحد ؟ نحـن الذين قلنا . وقد أكتشف العلماء فى العام الماضى نجوما أقدم من هذا الكون . إنها بقايا كون آخر .. أو على أطراف كون آخر .. فليس معقولا أن تكون هذه النجوم من أبنـــاء (هـــذا) الكون . وإلا يكون لك أنت ابن أكبر منك فى السن !!

كم كونا هناك ؟ عليك تقول : ألف .. مليون .. ألف مليون ، ولو سكت لكان جوابك أعقل ! لكن أحدا لن يسكت ! '

(أنتهى)

فى الواقع ــ وكما سنرى حالا ــ إن مثل هذه الأفكار قد جانبها كثير من الصواب فى ما إنتهى إليه الكاتب . فبداية هذه الأفكار ــ كما نرى من هذه الصياغة ــ يدل على ن الكـاتب لا يرى **للوجود حقيقة مستقلة** عن عقل الإنسان . فكل شئ هو من صنع للفكر الإنسانى وحـــده ، او بمعنى اخر هو من صنع العقل البشرى ، ولا وجود للشىء مستقلا خارج نطاق هذا العقل .

وبهذ الفكر او بهذا المفهوم ؛ يكون الكاتب قد أغفل مئات السنين من كفاح البشرية على مـــدى تقدمها الحضارى وتطور فلسفاتها . فالكاتب ــ هنا ــ لا يتناقض مع الو قع المحيط به فحسب ، بل يتناقض كذلك مع كل من **الفلسفة الوضعية المنطقية** و **الفلسفة التحليلية** يصـــ .

وهى الفلسفات التى إنتهت إلى : **أن الأشياء موجودة فى دنيا الواقع ، وليست هى من خلق الذهن ؛ فحتى لو لم يكن فى العالم ذات واعية واحدة ، لظل العالم معمورا بأشيائه تلك التى نصادفها فندركها فتصبح بعد إدراكها أجزاء من تيار الخبرة فى طوايانا** [٤] . **فالواقع الذى يجب التنبه له ؛ هو أن للكون وموجوداته وجودا مستقل بذاته عن العقل البشرى** . كما وأن هذا العقل لا يمثل أكثر من وسيلة الإدراك لهذا الواقع المستقل عن كياننا نحن . فنحن نملك الوعى الفطرى بوجودنا ، تماما كما نملك الوعى الفطرى بوجود هذا الكون المستقل عنا ، كما سبق مناقشة هذا المنظور الفكرى فى الفصل السابق .

ثم ننتقل إلى نقطة أخرى ، عندما يتساءل الكاتب بقوله :

" من الذى قال أن الكون يخضع لقوانين العقل الإنسانى ؟ "

والخطأ يكمن ــ هنا ــ فى ما يسمى بـ " **قوانين العقل الإنسانى** " . ففى حقيقة الأمر ؛ لا يوجد ما يسمى بقوانين العقل الإنسانى ، بل هى " **قوانين سرمدية أو أزلية** " مطلقة ومستقلة عن العقل البشرى ، حيث يقوم العقل الإنسانى باستقبالها والتقاطها والكشف عن وجودها فحسب .

فالعقل ليس هو صانع هذه القوانين . فدور العقل بالنسبة للقوانين الطبيعية ، هو نفس دور جهاز الراديو الذى يقوم باستقبال محطة الإذاعة فحسب . فبديهى ؛ أن *جهاز الراديو الذى يقوم باستقبال أو إلتقاط الموجات الكهرومغناطيسية الصادرة من محطة إذاعة ما* ، ليس هو الصانع لهذه الموجات المرسلة إليه . فهكذا حال العقل الإنسانى ، فهو مستقبل ــ فحسب ــ للقوانين الفيزيائية الموجودة فى الطبيعة . وكما يوجد " **صانع** " لكل من محطة الإرسال الإذاعى ، وجهاز الراديو المستقبل . كذلك يوجد هذا الصانع لهذه القوانين الفيزيائية (الإرسال) ، والإنسان (المستقبل لها) .

فواقع الأمر أن العقل الإنسانى يقوم بدور " **المُستَقْبِل : The Receiver** " للقوانين الكونية والسرمدية المستقلة عنه . وكما نقوم نحن بتصميم الراديو وتجهيزه بالدوائر اللازمة للكشف عن الموجات الكهرومغناطيسية الصادرة عن محطات الإذاعة المختلفة . كذلك الإنسان ، قد قام الله

---

[٤] " **ثقافتنا فى مواجهة العصر** " ؛ د. زكى نجيب محمود . الهيئة المصرية العامة للكتاب . ص : ٢٦٤ . كما سبق مناقشة هذا المنظور من وجهة النظر الدينية فى الفصل الثانى بند ٥ .

(ﷻ) ، بتجهيزه بالعقل اللازم (أى بالدوائر اللازمة) لإلتقاط وكشف القوانين السرمدية التى يعمل عليها الكون والإنسان معا . وتأتى هذه المعانى فى قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨) ﴾

(القرآن المجيد : الإنفطار {٨٢} : ٦ - ٧)

هكذا ؛ بنص مباشر .. ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ . أى أن الله (ﷻ) قد قام بتركيب الإنسان على نحو ما ، ومنه العقل البشرى ، بحيث يستطيع كشف وإلتقاط هذه القوانين السرمدية التى تحكم سلوك الكون وظواهره . وكما قام الإنسان بصناعة محطة الإرسال وجهاز الراديو وتحقيق التناغم بينهما .. كذلك قام المولى (ﷻ) بخلق الإنسان والقوانين الطبيعية ، كما قام بتحقيق التناغم بينهما .. وصورة هذا التناغم هو إعطاء الإنسان القدرة على معرفة واستخدام هذه القوانين الطبيعية والإستفادة منها . وهو ما يعنى أن المولى (ﷻ) ، قد سخر للإنسان القوانين الكونية فى صورها المختلفة من طاقة ، وظواهر جوية ، وإنبات .. وخلافه ، حتى يستطيع الإنسان الإستفادة منها .. تحقيقا لقوله تعالى :

﴿ *وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣)* ﴾

(القران المجيد : الجاثية {٤٥} : ١٣)

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم ... ﴾ ... اى لا دخل للإنسان فى شكل القانون وتسخيره ، فالله (ﷻ) هو الذى خلق القانون الطبيعى على النحو الذى يمكن للإنسان الإستفادة منه ، و﴿ ... جَمِيعًا مِّنْهُ ... ﴾ ، إنما تعنى أن خلق القانون الطبيعى بهذا النحو هو هبة من الله (ﷻ) للإنسان . فعلاقة الإنسان ــ بالحيوان مثلا ــ هى علاقة وجود متبادلة ، وليست علاقة خلق . فالإنسان ليس هو الخالق للحيوان ، فكلاهما ناتج طبيعى عن خلق حادث لكل منهما ... ولهذا يأتى قوله تعالى للتنبيه .. ﴿ ... إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ..!!!

ولم يؤهل *الله (ﷻ)* الإنسان بهذا العقل وعلى هذا النحو بدون أهداف أو غايات كلية ؛ بل أهله بهذا العقل وعلى هذا النحو لإدراك أهداف بعينها . وعلى رأس هذه الأهداف هى إدراك

وجوده .. " **الخالق** " ــ المتعال ــ الذى خلق الإنسان وخلق الكون على هذا النحو الذى نــراه . وهكذا ؛ فالعقل البشرى ليس هو الصانع لنفسه ، كما وأنه ليس هو الصانع لهذه القوانين الكونية ، ولكنه هو الوسيلة لإستقبال أو هو **المُستَقْبِل** لهذه القوانين فحسب .

ثــم نأتى إلى تساؤل آخر يقول به الكاتب : " **من الذى قال أن الكون يمشى على هوانا ، وبمشورتنا وحسب منطقنا وشريعتنا ؟ من الذى قــال ؟ نحن الذين قلنا . ونحــن الذيــن صدقنا** " .

وبديهى أن مثل هذا التصور ، هو تصور غير صحيح لواقع قائم فعلا ..!!! فنحن لم نقول أن الكون يمشى على هوانا ، كما وإننا لم نصدق ذلك . بل الواقع الفعلى هو الذى يفرض علينــا أن نقول : ***أننا والكون معا نمشى على سنن وقوانين سرمدية ــ فيزيائية وغير فيزيائيــة ــ لا نملك أن نحيد عنها ، او يحيد عنها الكون نفسه قيد شعرة . وهذه القوانين ، وهــذه الســنن هى منطق وشريعة الخالق لنا ، ولها ، ولهذا الكون .***

ومن منظور المثال السابق .. فكما لا نتصور أن الراديــو أو " المســتقبل : The Receiver " يستطيع تعديل طول الموجة التى يستقبلها من محطة الإرسال ، كذلك نحن لا نســتطيع تعديــل صيغ القوانين الفيزيائية التى نجرى ويجرى على نهجها الكون . وكما نقوم بتعديل منغم الراديــو (The Tuner) حتى نستطيع إلتقاط موجة الإرسال المطلوبة أو المحطــة المطلوبــة . كذلــك الإنسان هو الذى يقوم بالتناغم ؛ أو بمعنى أدق يقوم الله (ﷻ) بتنغيمه لإستقبال " **البث الكونى** " فى صورة القوانين المختلفة والموجودة فعلا . **أو من منظور آخر** ؛ فإن الله (ﷻ) قــــدر للإنسان القدرة على استقبال " **البث الإلهى** " لهذه القوانين حتى يستطيع إدراكها ، وإدراك معناها . فليس للإنسان حيلة فيما يفرض عليه من قوانين أزلية .

وبديهى كما يوجد جهاز راديو رخيص الثمن ، الذى لا يستطيع الكشف عن كل أنــواع البــث الإذاعى الموجود فى الفضاء ، على الرغم من وجود هذا البث فى الوسط المحيط بنــا ، كذلــك يوجد الإنسان البسيط الذى **لا يعمل فكره وعقله بقدر كاف** فى هذا الواقع الذى يمــوج بــالقدرة الإلهية ، وبذلك يفوته الكثير مما يقدمه " الله " (ﷻ) من إرسال . تماما مثل ما يفوت مســتمع الراديو الرخيص الكثير من البرامج القيّمة التى تقدمها محطات الإذاعة والتى لا يستطيع إلتقاطها أو استقبالها ، بينما تلتقطها أجهزة أخرى غالية الثمن ..!!!

ثم نأتى إلى قول اخر للكاتب ..

" ونحن الذين نصنع الكون على صورتنا . ولكن هذا الكون له منطق آخر .. لا نعرفه . من الممكن جدا أن يكون الكون بلا بداية ولا نهاية . هذا يبدو غريبا لنا . "

فى الواقع ، يتناقض هذا الكلام مع واقع علمى شاهق يشهد لنفسه قد أدركه الإنسان على مر حضاراته وسنين كفاحه العلمى . فلم يتنبه الكاتب إلى الاتى ..

أولا : أننا نعرف ــ الان ــ منطق وشريعة الكون تماما وبشكل واضح جدا ، وهو **منطق رياضى / فيزيائى** إلى حد كبير . وهذا المنطق هو فى متناول العقل الإنسانى الذى زودنا به " الله " (ﷻ) . وقد عرفنا ــ الان ــ الكثير عن هذا المنطق ، بل وأصبح ما لا يُعْرفْ عن **ظاهر** (وأشدد على معنى ظاهر) عالمنا المادى المحدود قليلا إلى حد ما . كما وأن بداية الكون ونهايته أصبحتا ــ الان ــ من أمور البديهيات العلمية .

ثانيا : أن الحساب الزمنى لعمر الكون ، على الرغم من كونه حسابا تقريبيا حتى الآن ، إلا أنه يؤكد على وجود بداية ونهاية للكون . وهذا الحساب ، لا يضع أى إحتمال ــ ولو عن بعد ــ **عن عدم وجود بداية ونهاية للكون** [٥] . وبداية ونهاية الكون تدل عليها المشاهدات والقياسات الفلكية والكونية معا ، سواء كان هذا على مستوى الموت الحرارى للكون ــ القانون الثانى من قوانين الديناميكا الحرارية ــ أو على مستوى تمدد واتساع الكون . وقد صيغت " **نظرية الإنفجار الأعظم : The Big - Bang Theory** " ــ الآن ــ كناتج طبيعى من هذه المشاهدات والقياسات الفلكية التى تفيد بأن للكون بداية محددة كما رأينا ذلك فى الكتاب السابق [٦] . أما نهاية الكون ، فعلى الرغم من وجودها بشكل قاطع ونهائى ، إلا أن الشكل النهائى لها لم يتحدد بعد ، أو لم ينتهى إليه العلماء بعد إلى الان [٧] .

---

[٥] بداية ونهاية الكون تستلزم وجود الخالق ، أما أبدية الكون وسرمديته فتعنى أن الكون هو الموجد لنفسه بنفسه ، وبالتالى يكون الكون هو الأول .. والاخر .. أى هو الإله ..!!! وفى هذا تناقض لوجود بداية ونهاية له .

[٦] أنظر كذلك القياسات الكونية التى تقع خلف هده النظرية فى تذييل رقم ٧ من الفصل الثامن من هذا الكتاب .

[٧] من ناحية احتمالات أن يكون : **الكون مغلقا أو مفتوحا أو مسطحا** . أنظر مرجع الكاتب السابق .

ولن نعيد ــ هنا ــ المشاهدات السابقة الدالة على بداية ونهاية الكون ، وكذا المشاكل ودلائل صدق النظريات المصاحبة لها ؛ ولكن لتحقيق إتصالية المعانى ، سوف نكتفى بالإشارة ــ هنا ــ إلى أن بداية الكون قد تحددت فى القران المجيد بقوله تعالى :

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) ﴾

(القران المجيد : الذاريات {٥١} : ٤٧)

[**والسماء** : معناها ــ هنا ــ الكون المادى بكامله كما سبق ذكره / **بأيد** : رمز للقوة والشدة ، كما تشير هذه الكلمة إلى الوحدانية والتفرد فى القيام بالخلق بدون معاونة / **موسعون** : أى أن سعة الكون آخذة فى الإزدياد ، فعندما يقال إزداد الإناء سعة ، فمعناها إزداد حجم الإناء]

وهى الاية التى تفيد **بتمدد الكون** مبتدءا ــ بديهيا ــ من أصل ما ، وهو ما يعرف باسم : " **النقطة الشاذة : The Singular Point** " [٨] ، وهى النقطة التى بدأ بها الإنفجار الأعظم ، فى " **نظرية الإنفجار العظيم : The Big bang theory** " . أما عن نهاية الكون ، فنكتفى ــ هنا كذلك ــ بالإشار إلى قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤) ﴾

(القرآن المجيد : الأنبياء {٢١} : ١٠٤)

[**طوى** (الشىء) : ضم بعضه على بعض ، وطوى بمعنى ضمر وتقلص وإنكمش / **والسماء** : معناها الكون المادى الذى نحيا فيه]

وهو ما يفيد بوجود نهاية للكون بعودته على بدء (راجع مشاكل تسطيح الكون فى الكتاب السابق) ، **وهو ما يمكن أن يقود مباشرة إلى " نظرية الإنسحاق العظيم : The Big Crunch Theory** " السابق الإشارة إليها . إذاً ؛ فـ " **قضية بداية ونهاية الكون** " ليست قضية غريبة الآن بأى صورة من الصور على الإنسان . بل هى فى جميع أحوالها قضية محسومة بداية ونهاية .

---

[٨] وتعريف **النقطة الشاذة على حسب النموذج القياسى لميكانيكا الكم** ؛ هى **النقطة** التى تحوى مادة ذات كثافة لانهائية ، وإنحنائها لانهائى (أى نصف قطرها صفر) ، ودرجة حرارتها لانهائية . وهذه النقطة هى النقطة التى بدأ بها الكون (أى عند الزمن صفر بالتعريف) :

According to the standard model, at the time zero (by definition) the universe had an infinite matter density, infinite curvature and infinite temperature, A state known as singularity.

ثم نأتى إلى القول :

" من الذى قال أن الكون من أوله لآخره ، هذا الكون الذى لا نعرف ظلاله وضبابه ولحظات من عمره ، هو خادم ذليل ذلول يأتمر بالعقل الإنسانى ؟ من الذى قال ؟ نحن الذين قلنا . غلطانون ؟ مؤكد . لماذا ؟ لأن الكون ليس من صنعنا . بل نحن من صنعه .. "

وهنا يصل عدم الوضوح فى الرؤية إلى حد بعيد ..!!! فالقول بأننا من " **صنع الكون** " ، إنما يعنى اسباغ صفة الخلق على الكون ، أى **أن الكون هو الخالق لنا** . ولا يعنى هذا ، أن ***الفرد المؤمن*** بهذا الفكر يكون قد ألغى إعتقاده فى " **إله خالق** " ..!!! بل على العكس من ذلك ، فمازال هذا الفرد ــ فى واقع أمره ــ يعتقد فى " **إله خالق** " ، ولكن هذا الإله أصبح الآن ــ من هذا المنظور ــ هو " **الكون** " ..!!! وبهذا المعنى يسبغ الفرد المؤمن بهذا الفكر صفة الألوهية على " **الكون** " ذاته .. أى أن " **الكون** " هو " **إلهه الخالق** " ..!!! وهنا يندرج *الفرد تحت الفئة التى تدعوا إلى وجود " إله " اخر ــ مع الله ــ لا برهان لهم به* ، كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (١١٧) ﴾

(القران المجيد : المؤمنون {٢٣} : ١١٧)

أى أن الدعوى بأن " **الكون هو الإله الخالق** " هى دعوى لا سند لها ولا برهان . وبديهى " **إله الفرد** " فى هذه الحالة ، يصبح خال من أى كمالات إلهية (أسماء الله الحسنى) ، باستثناء بعض الجمال الظاهر الذى ندركه ــ نحن العامة ــ عند التأمل والنظر فى هذا الكون . وبديهى أيضا ؛ هو " **إله** " له بداية ونهاية .. أى هو " **إله** " يتجه نحو الفناء ..!!! كما وأنه " **إله** " يخضع لقوانين صارمة لا يملك أن يحيد عنها ..!!! وبديهى ؛ لن يستطيع الفرد ــ المؤمن بهذا الفكر ــ أن يحدد لنا ماذا كان يوجد قبل " **إلهه** " هذا ..؟! هل هو العدم ..؟! أم شيئا اخر ..؟! وهكذا يختزل الفرد اعتقاده فى " **إله** " ذى كمالات مطلقة إلى إعتقاد فى " **إله** " مادى خالى من أى كمالات ..!!! ***ولكن ــ فى كل الأحوال ــ مازال الفرد يعتقد فى " إله خالق "..!!!***

وبديهى لن يدرك الفرد ؛ أننا والكون معا ــ ببساطة شديدة ــ من خلق " الله " . وليس هذا من باب جواز أو إطلاق معانى جزافية التى لا سند لها ولا برهان لها فى أرض الواقع يدل على

صحتها ، بل هناك الكثير من البراهين التى تم التعرض لها فى الكتاب السابق [٩] ، والتى تدل على صحة هذه المعانى ، كما سنعرض هنا ــ فى هذا الكتاب ــ لبراهين أخرى حول ذات المعنى .

ويصل عجز رؤية الفرد ــ المؤمن بهذا الفكر ــ إلى مدى بعيد عندما يتصور أننا نقول أن الكون **خادم ذليل ذلول يأتمر بالعقل الإنسانى ؟ على الرغم أننا من صنعه ..!!!** ففى الواقع كما سبق وأن أشرت ؛ أن الكون يخضع لقوانين إلهية سرمدية ، تسمح بتسخير ما فيه من ظواهر طبيعية لخدمة الإنسان فعلا .. كما جاء فى قوله تعالى للإنسان :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) ﴾،

(القران المجيد : الجاثية {٤٥} : ١٣)

والسماوات تعنى كوننا هذا والأكوان المتراكبة ، على النحو الذى رأيناه فى الفصل الأول من هذا الكتاب . والتسخير هو التكليف والقهر على ما لا يريد المرء ويرضاه ، وكذلك التكليف بالعمل بلا مقابل . وليس من السهل إستيعاب الجمع بين المعنيين ، خصوصا إذا ما قصد بهذا قانون طبيعى لا نعرف له إرادة ما . ولهذا نجد المولى (ﷻ) يشير إلى أن إدراك هذه المعانى لا يتأتى إلا لمن له القدرة على التفكير .. **﴿ ... إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾** .

ثم نأتى إلى قول الكاتب ..

" وقد أكتشف العلماء فى العام الماضى نجوما أقدم من هذا الكون . إنها بقايا كون آخر .. أو على أطراف كون آخر .. فليس معقولا أن تكون هذه النجوم من أبناء (هذا) الكون . وإلا يكون لك أنت ابن أكبر منك فى السن !!!

*وهنا نرى أن الكاتب قد جانبه الصواب ، ليس فى فهم معنى " **الكون** " فحسب ..!!! بل جانبه الصواب أيضا فى فهم معنى " **عمر الكون** " ؛ كما جانبه الصواب ــ ايضا ــ فى فهم معنى " **العلم والبحث العلمى** " .*

[٩] **الحقيقة المطلقة : الله والدين والإنسان** ؛ لنفس مؤلف هذا الكتاب . انظر كذلك الفصل الثانى من هذا الكتاب ؛ لرؤية مفهوم العلمانية أو بمعنى ادق الديانة العلمانية .

ففى حقيقة الأمر ؛ أن الكون ليس له " **شهادة ميلاد** " تم توثيقها فى " **مصلحة الشهر العقارى** " أو فى أحد مكاتب وزارة الصحة فى **يوم ميلاده بالضبط** . ولكن " **عمر الكون** " هو عمر تقديرى بحت ، قام العلماء بحسابه بناءا **على أسس من المشاهدات والقياسات الفلكية والكونية والفيزيائية العملية المتاحة** وقت إجراء هذه الحسابات . وبناءا على هذه القياسات والحسابات قد **تم تحديد أو بمعنى أدق قد تم تقدير عمر الكون** ، وهو تقدير ليس له صفة الدوام إلا بالقدر الذى لا تأتى به مشاهدات وقياسات جديدة أخرى تشير إلى عدم دقته . فإذا ما إكتشف العلماء ــ حديثا ــ نجوما أقدم من الكون فليس معنى هذا أن هذه النجوم تنتمى إلى كون اخر غير كوننا هذا ، بل هى نجوم تنتمى إلى نفس كوننا هذا ولم تكن معلومة فحسب . وبهذا المعنى تكون **المشاهدات والقياسات السابقة كانت غير كافية لتقدير عمر الكون بالدقة النهائية** ، وبالتالى تمخض عنها تقدير غير دقيق لعمر الكون . وبالتالى فعلى العلماء إعادة حساباتهم مرة أخرى بناءا على ما استجد من قياسات جديدة والتى لم تكن موجودة أو معروفة من قبل .

وبديهى إن التقدير السابق هو تقدير صحيح فى إطار القياسات الصحيحة الأولى ، وكذلك التقدير الثانى ــ والذى سوف ينتهى إليه العلماء ــ هو تقدير صحيح أيضا فى إطار القياسات الصحيحة الجديدة والمتاحة أيضا . وسيظل ــ هذا التقدير ــ صحيحا ما لم نحصل على قياسات جديدة تتطلب تعديلا ثالثا فى حساب عمر الكون .

ففى الواقع ؛ أن عدم الدقة فى تقدير عمر الكون لا يقع فى طريقة أو أسلوب الحسابات التى يتم إجراؤها بها ، ولكن عدم الدقة يأتى من نقص أو عدم توفر القياسات الفلكية الكافية ، ربما لعدم دقة الأجهزة العلمية المتاحة حتى الان . وفى الحقيقة ؛ لا يوجد خطأ ما .. فى جميع الحسابات التى تم إجراؤها من قبل ، والتى يتم إجراؤها من بعد إلا فى أضيق الحدود . ولكن المعلوم جيدا ــ لدى أهل العلم ــ أن النتائج التى يتم الحصول عليها ؛ هى نتائج صحيحة " **صحة نسبية** " ، وذلك فى إطار القياسات المتاحة وقت اجراء هذه الحسابات . كما يجب ملاحظة أن الإنسان قد قارب ــ الان ــ إلى الوصول إلى منتهى قدراته فى تصنيع الأجهزة المساعدة والتى تتيح له توسيع مدى طيف إدراكاته وحواسه ... وهو ما يعرف فى الفيزياء باسم " **نقطة التجمد : the Freezing point** " **المعرفى** ، أى أننا على وشك الوصول الى نقطة معرفية .. لا يمكن معرفة : " **معرفة** " أكثر منها الا بقدر ضئيل الى حد ما ..!!!

كما ينبغى الإشارة هنا ، إلى أنه عندما نتكلم عن الكون فإننا نعنى بذلك جميع الأجرام والمادة السماوية التى نراها بالحواس مباشرة باستخدام التليسكوبات ، كما يشمل هذا أيضا المادة التى لا نراها إلا بمساعدة الأجهزة الراديوية الأخرى كالتليسكوبات الراديوية (كما هو الحال فى علم **الفلك الراديوى : Radio Astronomy**) وخلافه . ويشمل هذا ما نراه الان أو ما سوف نراه بعد الاف أو ملايين السنين ــ هذا إن بقى للإنسان وجود بعد كل هذا الزمن ــ فكل هذا يمثل الكون المادى الذى نحيا فيه ، أو " **السماء الدنيا بلغة القرآن المجيد** " ؛ على النحو الذى رأيناه فى الفصل الأول من هذا الكتاب .

وربما كان العرض الفكرى السابق كاف لبيان أن **عدم نضوج فكر الفرد العلمى** ، فيه ما يكفى للوصول إلى نتائج بالغة الخطأ ، مما تسبب بعد الإنسان عن الدين والخالق على نحو لا يمكن وصله ...!!! ونختم هذه الفقرة بقوله تعالى ...

﴿ *وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ (٧١)* ﴾

(القران المجيد : المؤمنون {٢٣} : ٧١)

ففى هذه الاية الكريمة ما يكفى لاستيعاب مفهوم الوجود ...!!!

٢. علاقة الإنسان بالله وعلاقة الإنسان بالدين [١٠]
أو ... العاطفة والعقل لدى الإنسان

فى نهاية أحد المناظرات الدينية التى جرت بين أحد الدعاة المسلمين وبين أحد القساوسة المسيحيين ، قام أحد الشباب (المسيحيين) فى نهاية المناظرة معلقا على المناظرة وموجها كلامه إلى الداعية المسلم ، وقال مستنكرا ومستعديا عليه المستمعين (ما معناه) : لقد جئت إلينا مستفيدا من تسامحنا وسعة صدرنا لتسب " **إلاهنا** " علنا (يقصد بذلك قول الداعية المسلم بأن

---

[١٠] سبق تقديم هذا الموضوع مفصلا ، فى مرجع الكاتب السابق : " **الحقيقة المطلقة ... الله والدين والإنسان** ؛ تحت بند : " **الوعى الفطرى بوجود الله ... وظاهرة تعدد الأديان** " ، من الفصل الثانى من هذا الكتاب .

عيسى نبيا ورسولا وليس إلاها) ، فهل هذا جزاء هذا المكان الذى أعطاك حرية لكلمة فتسب إلاهه ..؟! وفيما يبدو كان تعليقا غير متوقعا للداعية المسلم ، لهذا تردد قليلا واحتار فى الرد عليه ..!!! وهنا ضجت القاعة بالتهليل والتصفيق .. تأييدا لهذا الشاب لمتحمس الذى أحرج الداعية المسلم بتعليقه من جانب ، كما أيد إعتقادهم فى " **عيسى** " (عليه السلام) كإله .. من جانب اخر ..!!! وأخذ الشكل النهائى للمعلق ورد فعل المستمعين المسيحيين ..

﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) ﴾

(القران المجيد : الأنبياء {٢١} : ٦٨)

فهذا هو الإنفعال العاطفى بوجود " الله " (ﷻ) لدى الإنسان ، وهذا هو التشيع للإدراك الفطرى بوجود " الله " داخل النفس البشرية بدون أخذ الجانب العقلى فى الإعتبار [١١] ...!!!

وبهذه المقدمة نأتى إلى نوع اخر من الفكر ، الذى يكفى القول به إلى **تدمير القضية الدينية برمتها وتقويض أركانها** أيا كانت صدق المضامين الدينية الجزئية التى يحويها هذا الدين . وهذا الفكر يمثل قطاع كبير من الفكر المتداول الان . وخير من يمثل هذا الفكر **هو بعض آراء** ، المفكر الإسلامى " **على عزت بيجوفيتش** " (رئيس البوسنة والهرسك) ، وما ورد فى كتابه " **الإسلام بين الشرق والغرب** " [١٢] . فـ " **الدين** " أو بمعنى أدق " **القضية الدينية** " من وجهة نظر **هذا المفكر الإسلامى** لم تخرج عن مفهوم " **الفن** " . وبديهى ، بهذا المفهوم يصبح الدين أحد الأنظمة الجمالية ، الذى لا توجد فيه حقيقة مطلقة . **فعلى الرغم من إعتناق " على عزت بيجوفيتش " للديانة الإسلامية ، إلا إنه لم يدرك أن الإسلام قد نقل " القضية الدينية " ــ منذ نزول القرآن المجيد على محمد (ﷺ) ــ برمتها ، من " حيز الفن "**

---

[١١] أنظر " **المرجع السابق للتفاصيل** " . كما أود أن أشير ــ هنا ــ إلى أن " **الداعية** " الذى يقوم بدعوته على أساس فكر " **تبشيرى بالديانة الإسلامية** " ، سوف يتردد وربما يعطى إجابات غير مقنعة للتساؤلات المماثلة ، أما من يرى الإسلام فى واقع أمره هو : " **بلاغا للبشرية ... وعلى الإنسان تحقيق الغايات من خلقه** " سوف يرى أن الإجابة على مثل هذه التساؤلات من أبسط الأمور لديه . فليس القضية سب " عيسى " كإله ، إنما القضية تبصرة الإنسان بوجود غايات من خلقه ، وأن هذه الغايات لن تتحقق له باعتقاده فى عيسى كإله . فالمسئولية التى تقع على كاهل المسلم هو التبليغ بالغايات من الخلق فحسب . (أنظر الفصل الخامس / الديانة المسيحية ، والملحق الثانى / وثنيات دينية ، من هذا الكتاب) .

[١٢] **الإسلام بين الشرق والغرب** : Islam Between East and West ؛ على عزت بيجوفيتش . مؤسسة بافاريا ، ترجمة محمد يوسف عدس .

(أى من حيز العاطفة) إلى " **حيز القضايا العلمية الكلية** " (أى إلى حيز العقل) . وسوف نرى أن هذا المفكر ــ فى كل كتاباته ــ قد إلتبس عليه فكرين أساسيين هما :

فكر : " علاقة الإنسان بالله " ؛
وفكر : " علاقة الإنسان بالدين "

ففكر : " علاقة الإنسان بالله " هو " فكر عاطفى " بحت لدى الإنسان ؛ أو بمعنى آخر أن " الوعى الفطرى بوجود الله لدى الإنسان " هى علاقة عاطفية قد ركبها " الله " (ﷻ) فى الجانب العاطفى لدى الإنسان . وهذه العلاقة تمثل ***النسيج الخفى*** الذى يربط إدراك الإنسان بوجود الخالق له على نحو غامض ..!!! ***وقد بينا فى الكتاب السابق أن " دموع الإنفعال بالحضرة الإلهية " يتساوى فيها الإنسان .. فى المساجد .. فى الكنائس .. فى المعابد .. فى أى دور أخرى للعبادة ..***

فالإنسان ليس فى حاجة إلى دين لإدراك وجود الله ...

وبديهى ؛ يمكن أن يعبر " **الفن** " عن هذه العلاقة الفطرية فى صوره المختلفة وبشكل كامل . وتتنوع هذه الصور لتشمل المعنى العريض للفن ، كالشعر ، والموسيقى ، والأغنية ، والرسم ، والنحت ، والقصة ... إلى آخره من هذه التصورات .

ففى جميع هذه الصور الجمالية ، نستطيع أن نستشعر وجود الله فى رؤية أحد المناظر الطبيعية الرائعة ، وربما لم يتنبه الإنسان ــ بعد هذه الرؤية ــ إلا بالخشوع النفسى الداخلى لعظمة هذا الخالق ..!!! وربما كانت المقطوعات الموسيقية الرائعة لا تخلوا من الإنفعال العاطفى بوجود هذه الحضرة الإلهية ..!!! ففى الواقع ؛ أن ظاهرة كل حب إنسانى تتناهى جذورها إلى الحب الإلهى المفطور فى النفس البشرية .. حتى وإن لم يعى الإنسان ذلك ..!!! وربما مثل هذه الرؤية تستلزم رحلة علمية وفكرية طويلة .

وهذه العلاقة العاطفية ؛ أى العلاقة القائمة على الإدراك أو الوعى الفطرى بوجود الله ، هى الأصل فى تعدد الأديان . واستمرار تدين الإنسان بالأديان الوثنية ، كما هو الحال الان فى المعتقدات الدينية لدى الأمم والشعوب المختلفة ، إنما مرده إلى وجود هذه العاطفة الفطرية لدى الإنسان . ولحكمة تحقيق الغايات من الخلق (وهو ما يعرف بحكمة الإبتلاء أو إختبار قدرات

الإنسان العقلية فى معرفة واستنتاج الحقيقة) ، فإن الإنسان يستطيع الإكتفاء بهذه " العلاقة العاطفية " ، والقيام بتأسيس أى نظام دينى كبنية فوقية على هذا الإعتقاد . يغذيه فى هذا – عاطفيا – الإعتقاد فى وجود هذا الخالق فحسب . ولا تشترط هذه العاطفة صفات محددة أو صفات بعينها لهذا الخالق ، كما لا تستلزم وجود أى غايات من الخلق ، كما لا تشترط أى طقوس أدائية معينة لعبادة هذا الخالق ، إنما تشترط وجود الخالق من حيث المبدأ فحسب .

وتتمثل وجود هذه الفطرة الإلهية فى النفس البشرية فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي ءادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤) ﴾

(القران المجيد : الأعراف {٧} : ١٧٢ - ١٧٤)

وقد سبق لتعرض لمعانى هذه الأيات .

أما الفكر الثانى ؛ أى فكر : " **علاقة الإنسان بالدين** " ، فهو " **فكر عقلانى بحت** " يفرضه علينا الخالق – أى الله (ﷻ) – كناتج طبيعى من وجود غايات من خلق الإنسان . أو بمعنى اخر ؛ أن علاقة الإنسان بالدين يضعها الخالق فى صورة " **علاقة عقلية** " ، كضرورة تحتمها تحقيق الغايات من خلق الإنسان ، وكناتج طبيعى من تركيب العقل البشرى على هذا النحو وما يتميز به من قدرة على التحليل والإستنباط والإستنتاج فى كل ما هو مؤهل لدراسته ، وكذا مقدرة العقل على التمييز ما بين ما هو حق وما هو باطل . ويتلخص هذا الفكر الدينى فى قوله تعالى :

﴿ *يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا* (١٧٤) ﴾

(القران المجيد : النساء {٤} : ١٧٤)

وبديهى **البرهان** هو قضية عقلية وليست قضية عاطفية .

obeikandi.com

ولكى يدرك الإنسان معنى دور الدين فى حياته ، يجب عليه القيام بالفصل الدقيق والصارم بين الفكرين السابقين ، أى الفكر العاطفى (متمثل فى إدراك وجود الله) ، والفكر العقلانى (الذى يتمثل فى إدراك صحة المضامين الدينية) . وبديهى عدم التفرقة بين الفكرين يفقد الإنسان طريقه الصحيح فى التوجه إلى الله (ﷻ) ، وهو التوجه الذى يعتبر غاية الغايات من خلق الإنسان .

ولبيان الخلط فى هذه المعانى السابقة ، دعنا نذهب مباشرة إلى اراء المفكر الإسلامى " **على عزت بيجوفيتش** " فى هذا الصدد ، حيث نجده يقول كتابه " **الإسلام بين الشرق والغرب** " [١٣] :

" أنه يوجد **رباط وثيق بين الفن والدين** . ففى جذور الدين والفن وحدة مبدئية . فالدراما ذات أصل دينى ، سواء من ناحية الموضوع ، أو من ناحية التاريخ . فالمعابد كانت هى المسارح الأولى بممثليها وملابسها ومشاهديها . وكانت أوائل المسرحيات الدرامية طقوسا ظهرت فى معابد مصر القديمة منذ أربعة الاف سنة مضت . وقد انبثقت الدراما الإغريقية من أغانى الكورال فى تكريم الإله " **ديونيسوس** [١٤] " . وكانت المسارح تقام بالقرب من معبده . وكان العرض المسرحى يستمر خلال الإحتفالات المتعلقة بعبادة الإله " **ديونيسوس** " كجزء من الخدمة الدينية . إن الأصل الشعائرى للمسرح والثقافة بصفة عامة لا شك فيه ، وهو يستند إلى أساس من أدلة تاريخية دقيقة .

لقد كانت الدراما وليس اللاهوت ، هى وسيلة التعبير عن الدين الحقيقى والمشاكل الأخلاقية للبشر . وتنعكس الطبيعة المزدوجة للدراما بوضوح فى القناع [١٥] الذى يوحى بالدين والدراما فى الوقت نفسه . لقد كانت الرسوم الأولى والتماثيل والأغانى والرقصات جزءا من الشعائر ؛ وإنما انفصلت مؤخرا عن العبادة وأصبحت توجد مستقلة " .

(إنتهى)

---

[١٣] **الإسلام بين الشرق والغرب** : Islam Between East and West ؛ على عزت بيجوفيتش . مؤسسة بافاريا ، ترجمة **محمد يوسف عدس** ؛ ص : ١٤٤ - ١٤٧ .

[١٤] **ديونيسوس** : Dionysus ; Dionysos - : إله **الخمر** عند اليونان (الإغريق) ، وبالتالى فهو إله **الإلهام والنشوة** . ويقابله **الإله** : **باخوس** : Bacchus - عند الرومان . وقد حظيت عبادة الإله **ديونيسوس** بشعبية واسعة عند الإغريق . وكان دأب الإغريق إقامة المهرجانات الصاخبة تكريما لهذا الإله

[١٥] يقصد بهذا القناع الذى يرتديه الممثلون ليستحضروا به الشخصية التى يقومون بتمثيلها . وهى الوظيفة نفسها التى يستخدم فيها القناع فى الطقوس الدينية البدائية .

وبهذا الفكر نجد أن " **فطرية وجود الله داخل النفس البشرية** " قد اختلطت على " **على عـــزت بيجوفيتش** " مع فكر " **القضية الدينية** " [١٦] . فإقامة المعابد ، وإجراء لطقوس للإله ... إنمـــا هى العلاقة التى تعكس روابط الإنسان بالله فحسب (وليست علاقة الإنسان بالدين) ، أى إدراك الإنسان الفطرى بوجود " الله " فحسب . ثم إذا ما نسج الفكر الإنسانى حول هذه العلاقة مفـــاهيم إنسانية صرفة ، فإنها تشكل فيما بعد " **فكر الدين الوضعى** " الذى يتخذه الإنسان منهاجا مقدســـا يعتنقه ويؤمن به .

فيجب التنبه إلى أن الطقوس الدينية بجميع صورها ، إنما هى شهادة صدق علـــى أن " الله " (ﷻ) مفطور فى داخل النفس البشرية ، بشكل مستقل عـــن المضـــامين الدينيـــة الـــواردة أو الموجودة فى الديانة ذاتها . ثم تنعكس هذه العلاقة فيما بعد على الإنسان ، بأى ديانـــة وضعيـــة يقوم الإنسان بتأسيسها . **ويمكن القول وبدون أى تجـــاوز ؛ أن جميـــع الديانـــات الحاليـــة ـــ باستثناء الإسلام ـــ تمثل البنية الفوقية على الإعتقاد الفطرى بوجود الله ، يحكمه فـــى هـــذا الخيال الفكرى (أو الأسطورى) ، كما يحكمه كذلك الوهم وأهواء النفس .**

فتتاغم الإنسان مع فطريته فى إدراك وجود الله (ﷻ) هو " **إنفعال عاطفى** " يمثله " **الفن** " فى صوره المختلفة ؛ كالموسيقى والشعر والرسم والنحت وخلافه . وكثيرا ما نرى صور مـــن بعض هذا الفن فى صورة **التراتيل فى داخل الكنائس ، وحلقات الذكر لدى بعض الصوفية** فـــى الإسلام . بل ويوجد لدى بعض الصوفية موسيقاتهم الخاصة التى تعمق لإحساس بوجود هـــذه " **الحضرة الإلهية** " ، وبذلك يستطيع الصوفى الإقتراب من " **الله** " بشكل أسرع ـــ بإثارة عواطفه ـــ مما لو إعتمد فقط على تكرار نصوص دينية بطريقة نمطية .

وفكر " **القضية الدينية** " (أى فكر المضامين الدينية) هو موضوع اخر مغـــاير تمامـــا للإدراك الفطرى بوجود الله . **فالدين قضية عقلية وليس قضية عاطفية** . وما أعنيـــه هنـــا أن

---

[١٦] لم أقصد فى كل كتاباتى بـــ " **القضية الدينية** " إلا بـــ " **القضية الدينية المطلقة** " **وليست** " **القضية الدينيـــة النسبية** " . و " **القضية الدينية المطلقة** " : هى القضية الصادرة عن الخالق ذاته ، حيث يقوم فيـــها " **الخـــالق** " بتحديد العلاقة بينه وبين الإنسان ، وتحديد الغايات من خلق الإنسان . **ولا يتحقق هذا المفـــهوم إلا فـــى الديانـــة الإسلامية وحدها** . أما " **القضية الدينية النسبية** " فهى القضية الصادرة عن الإنسان ذاته ، وكمـــا تجـــىء بـــها الأديان الوضعية حيث يقوم الإنسان بتحديد علاقته بالخالق (إن أمكن) ، وكذا التكهن ـــ إن أمكن ـــ من تعريـــف الغايات التى خلق من أجلها الخلق . وتمثل **القضية الدينية النسبية** " الأديان الوضعية الحاليـــة فـــى صورهـــا المختلفة الحالية ؛ وعلى رأسها البوذية ، **وكذا الأديان السماوية المحرفة كاليهودية والمسيحية** . أنظـــر كذلـــك كتاب : **الحقيقة المطلقة : الله والدين والإنسان** " ؛ لنفس مؤلف هذا الكتاب .

الإحساس بالجمال هو إحساس متغير ونسبى حتى بالنسبة لذات الشخص ويتمثل هذا الإحساس ويتجسد بالعاطفة ، بينما الحقائق لا يمثلها إلا العقل وتبقى مستقلة عن العواطف الإنسانية . وبديهى ؛ لما لم يتنبه " **على عزت بيجوفيتش** " إلى هذه الحقيقة ، **إعتبر الدين تمتد أصوله إلى الفن .. بينما يجب أن يمتد الفن وأصوله إلى الوعى الفطرى بوجود الله (ﷻ) ..!!!**

ويستمر " **على عزت بيجوفيتش** " على فكره هذا وإلتباس الأمر لديه ، حتى أصبح هذا الفكر هو الفكر النمطى المسيطر عليه ، على الرغم من إسلامه ، وقيامه بالدعوة له ..!!! فعلى الرغم من أن الكاتب يتحرك فى كتابه من منطلق الإيمان بالدين الإسلامى ، إلا أنه فى الواقع قد أساء إلى هذا الدين ــ **بدون قصد** ــ إساءة بالغة لعدم إدراكه الواعى بطبيعة " **القضية الدينية** " ونقلها إلى حيز " **الفن** " أو حيز العاطفة الإنسانية . وتسوية الدين بالأنظمة الفنية ، إنما يعنى أن تضيع " **الحقيقة المطلقة** " برمتها من بين يدى فكر " **القضية الدينية** " ويصبح الدين له منظور نسبى فحسب ، وبهذا يخرج من حيز التكليف الإلهى للإنسان إلى حيز العبث وإنعدام الغايات من الخلق .

ونأتى إلى مثال آخر يسوقه لنا " **على عزت بيجوفيتش** " فى كتابه السابق الذكر ، فنجده يقول فى صفحة (٤٧) :

" ***إن قضية أصل الإنسان هى حجر الزاوية لكل أفكار العالم . فأى مناقشة تدور حول كيف ينبغى الإنسان أن يحيا ، تأخذنا للوراء إلى حيث مسألة " أصل الإنسان " . وفى ذلك تتناقض الإجابات التى يقدمها كل من الدين والعلم ، كما هو الشأن فى كثير من القضايا*** "

(إنتهى)

وبديهى مقولة كهذه كافية لأن تنسف القضية الدينية برمتها وتقضى عليها تماما ، خصوصا بالنسبة لأى رجل علمى ، أو على الأقل بالنسبة لأصحاب المناهج الوضعية المنطقية . فبديهى ؛ طالما أن الإجابات الدينية تتناقض مع معطيات العلم التجريبى المستقرة لدى الإنسان ، **فإن معنى هذا هو الإنفصالية الحتمية بين الدين والعلم** . وليس هذا فحسب ؛ بل إن مثل هذا **الفكر يلقى بظلال كثيفة من الشك على مفهوم** " **الدين والخالق** " لهذا الوجود . كما يصبح الدين ــ بهذا المفهوم ــ ليس أمرا من أمور العقل أو الفكر إنما أمرا من أمور الإعتقاد فحسب .

وليس هذا فحسب ، بل ان هذا الفكر يلقى بظلال كثيفة من الشك على ذات الخالق ، وهى الذات المحيطة بكل شيء علما ، وبان هذه الذات ليست **المصدر الحقيقى للدين** . وهكذا يصبح **الدين هو مصدر الإله** وهو ما يعنى بأن الفكر الدينى ، هو فكر وضعى من صنع الإنسان ذاته وليس مصدره الخالق المطلق ــ أى " الله " (ﷻ) ــ الواعى بما خلق . وبديهى إن مثل هذا الفكر يعنى : **إعفاء الدين من أى دور وظيفى له مهما كانت طبيعته وأهميته للإنسان ؛ كما يعفى الإنسان أيضا من فكر التكليف . وبهذا تسقط الغايات من الخلق** ، وهو ما يتنافى مع فكر الكمالات الإلهية [١١] . وبديهى ؛ خلقا بدون غاية إنما يعنى العبث الإلهى ..!!!

ولقد إنتهينا من الفصل الثانى من هذا الكتاب أن المضامين الدينية للديانة الحقة يجب ألا تتناقض مع معطيات العلم التجريبى المستقر عليه مهما كانت نتائج هذا العلم ، ومهما كانت درجة جموح هذا العلم عن الواقع الغير محتمل تحقيقه . وكما سبق وأن ذكرت فإن المتحدث فى الدين هو " **الخالق المطلق للإنسان وعلمه التجريبى** " ، فكيف تتناقض ــ بعد هذا ــ معطيات العلم التجريبى مع مقولة الخالق لها ، إلا إذا كان هذا العلم له الإستقلالية عن ذات الخالق ، وبديهى يمثل هذا تناقضا صارخا اخرا .

ويؤكد الكاتب (**على عزت بيجوفيتش**) ــ مرة أخرى ــ على **التناقض الموجود بين الدين والعلم** فنجده يقول :

" **ينظر العلم إلى أصل الإنسان كنتيجة لعملية طويلة من التطور** إبتداء من أدنى أشكال الحياة ، حيث لا يوجد تميز واضح بين الإنسان والحيوان . وتحدد النظرة العلمية إلى الكائن البشرى باعتباره إنسانا (مميزا) ببعض الحقائق المادية الخارجية : مثل المشى قائما ، وقيامه بصناعة الأدوات ، والتواصل بواسطة لغة منطوقة مفصلة . فالإنسان هنا ابن للطبيعة ويبقى دائما جزء منها . وعلى الجانب الاخر ، **يتحدث الدين والفن عن خلق الإنسان ، *والخلق ليس عملية وإنما فعل إلهى ... ليس شيئا مستمرا وإنما فعل مفاجئ ... فعل أليم مفجع*** "

(إنتهى)

وهكذا ينظر الكاتب إلى عملية الخلق الممتدة ــ أى المصحوبة بالتطور وبغض النظر عن شكل هذا التطور ــ بأنها يجب أن تخرج عن نطاق ومعنى فكر الخلق الإلهى . فعملية " **الخلق الإلهى** " ــ من وجهة نظر الكاتب ــ **يجب أن تتم بشكل مفاجئ** ..!!! **وهو ما يعنى أن عملية**

[١١] انظر الفصل السادس من هذا الكتاب للتفاصيل .

الخلق يجب أن تأخذ شكل الفعل المفجع الأليم ، أى فى صورة الخلق اللحظى واللامتغير . أى فى فترة زمنية طولها صفرا ، وليس تطورا تاريخيا قد قضى به الله (ﷻ) لمخلوقاته . وقد بينت فى الكتاب السابق [١٨] ، وكما سوف أبين هنا أيضا أن القران المجيد قد جاء بفكر التطور بشكل أوسع وأعم مما جاء به دارون .

ثم يستطرد على **عزت بيجوفيتش** ، من كتابه المذكور (صفحة : ٥٠) فيقول :

" وهكذا ، فإنه فيما يتعلق بالسؤال عن أصل الإنسان ، ***يقف العلم والفن على طريق تصادم قطعى*** . فالعلم يحصى الحقائق التى تؤديه بطريقة عنيدة إلى الإستنتاج بأن الإنسان قد تطور تدريجيا من حيوان إلى إنسان [١٩] . أما الفن فإنه يرينا الإنسان فى صورة مثيرة قادما من عالم مجهول . العلم يشير إلى " **دارّوين** " وتركيبته الجهنمية ، أما الفن فيشير إلى " **مايكل أنجلو** " وشخوصه الرائعة على سقف " **كنيسة سيستين** [٢٠] .

---

[١٨] للتفاصيل أنظر الملحق الثالث من هذا المرجع ؛ وأنظر كذلك الفصل الثامن من هذا الكتاب .

[١٩] طبعا هذا منظور خاطىء ، فالعلم لم يقل بأن الإنسان قد بدأ قردا ثم تطور ، ولكن الإنسان هو جنس مستقل بذاته شأن فى ذلك شأن الأجناس الأخرى ، وإن تطور فى حدود ذاته (أنظر الفصل الثامن للتفاصيل) .

[٢٠] " **كنيسة سستين : The Sistene Chapel** " : أشهر الكنائس الصغيرة (مصلى) فى العالم ، وتقع داخل **دولة الفاتيكان** فى روما . أقامها " **البابا سكتس الرابع : Pope Sixtus IV** " فى عام ١٤٧٣ م . وتستخدم هذه الكنيسة فى الإحتفالات البابوية الرئيسية ، ومنها إقتراع الكاردينالات على انتخاب " **بابا الكنيسة الرومانية الجديد** " . وأبعاد مبنى هذه الكنيسة الصغيرة هو (٤١ متر طول ، ١٣ متر عرض ، ٢٦ متر إرتفاع) . **وتحوى جدران هذه الكنيسة وسقفها أهم الأعمال الفنية قاطبة فى العالم الغربى كله .**

وقام **مايكل أنجلو** " برسم أهم أعماله على سقفها ، وهى صورة يبين فيها ــ مايكل أنجلو ــ " **الخالق** " وهو يقوم بخلق الشمس والقمر والمملكة النباتية . ويأتى " **الخالق** " **فى هذه الصورة على شكل إنسان غاضب** ذو لحية كثيفة وشارب وشعر أشعث ، وملتف بملاءة ، ويأخذ وضع من يعدو تقريبا ، ويلتف من حوله بعض الأطفال . ويشير " **الخالق** " باليد اليمنى إلى الشمس وباليد اليسرى إلى والقمر ، وتوجد بعض النباتات فى حرف الصورة . كما توجد بالصورة ــ أيضا ــ شخصية مساوية للرب تقريبا فى الحجم ــ **ربما الشيطان** ــ وعليها رداء مماثل لرداء الرب ، ولكنها تبدو أنها تولى الأدبار منه ــ أى من الرب ــ حيث يظهر **دبر** هذا الهارب عاريا تقريبا . [توجد صورة لهذا السقف فى موسوعة : The Annual : The 1996 The World Book Year Book Supplement to the World Book Encyclopedia pp 468]

إن " **داروين** " و " **مايكل أنجلو** " [٢١] يمثلان فكرتين مختلفتين عن الإنسان وحقيقتين متعارضتين عن أصله ، ولن ينتصر احدهما على الاخر ، **لأن أحدهما مدعم بعدد هائل من الحقائق يستحيل تفنيدها ، بينما الآخر مستقر فى قلوب جميع البشر** . "

(إنتهى)

قول قاصر للغاية ..!!! فمثل هذا **القول يكفى لهدم الدين على رأس البشرية جمعاء ، بل ويكفى لتقويض أركانه** ، مهما كانت صحة المضامين ــ الجزئية ــ التى يحويها ، طالما وأن الدين يحوى ــ فى ما يحوى ــ قضايا تتناقض تناقضا صارخا مع العلم المستقر عليه .

ولهذا لابد لنا من وقفة أمام هذا الفكر .. ونقول ؛ فكما أن " **القضية العلمية** " لا تسمح بوجود التناقض الذاتى فى داخل مضامينها العلمية ، كذلك " **القضية الدينية الحقة** " يجب ألا تسمح بوجود التناقض الذاتى أيضا فى داخل مضامينها الدينية . لأن مفهوم " **القضية الدينية** " هو ــ فى الواقع ــ مفهوم أعم وأشمل من مفهوم " **القضية العلمية** " ، وليس هذا فحسب ، بل يجب أن تحوى القضية الدينية ، القضية العلمية فى طياتها . فلسنا أمام الدين بصدد إقتراع ما ... على " **قضية جمالية** " ، ولكننا بصدد قضية فى منتهى الخطورة ، تمثل " **غايات الخالق من خلق الإنسان** " ، وبها يتوقف مصير الإنسان على تحقيقه لهذه الغايات . ولهذا فنحن أمام " **الدين** " نكون بصدد " **قضية علمية** " الفيصل فيها للتجربة والتحقيق مهما كان نوع إعتقاد العامة . فـ " **القضية الدينية** " ليست قضية إيمان جزافى أو إعتباطى بفكر ما لغوغاء غير مسئولة ، ولكنها قضية علم حقيقى مستقر ، حتى وإن إمتنع عن معرفته الأغلبية العامة من البشر . وقد بينت فى الكتاب السابق [٢٢] ــ وكما أقوم بأستكمال هذه المفاهيم فى هذا الكتاب ــ إن مثل هذا " النظام المنطقى " فى " القضية الدينية الحقة " لا نجده إلا فى " **الديانة الإسلامية** " فقط . وقد تم عرض ومناقشة وثنيات جميع الأديان الموجودة الان على ساحة الفكر البشرى فى الفصل الخامس من هذا الكتاب لكى يرى القارىء ماذا أعنى . كما سنتناول مزيد من البراهين العلمية هنا ، حول هذا المعنى .

---

[٢١] **مايكل أنجلو** : Michelangelo (١٤٧٥ ــ ١٥٦٤) : نحات ورسام ومهندس معمار إيطالى . يعد احد اعظم الفنانين فى جميع العصور . قام فى الفترة من (عام ١٥٠١ الى عام ١٥٠٢) بتنفيذ الرسومات الخاصة بقصة خلق الإنسان كما ورد ذكرها بالكتاب المقدس بسقف : كنيسة سيستين : The Sistene Chapel ، انظر التذييل السابق .

[٢٢] **الحقيقة المطلقة ... الله والدين والإنسان** : لنفس مؤلف هذا الكتاب

٣ . الظاهر والباطن ... والتوقف عند ظاهر الفعل

الطبيعة أم الله ..؟! سؤال يتردد دائما على ألسنة العامة .. ليحكى قصة الرؤية القاصرة للبشرية العاجزة التى ما زالت تتساءل لمن ننسب الفعل .. للطبيعة أم لله ..؟!!!

ونعرض ــ أخيرا ــ هنا فكر آخر يمثل تفسير **الظواهر الطبيعية** على نحو مستقل عن الفعل الإلهى ، كما لو أن الطبيعة لها وجود مستقل ومكتف بذاته وهى تدور بدون حاجة لإله .. وهذا المعنى جاء على لسان أحد الكتاب المصريين [٢٣] على النحو التالى ..

" كل القصص التى جاءت فى **الكتب المقدسة** لها تفسيرات فلكية حديثة ... فبدلا من أن تذهب إلى كتب التفسير (أى تفسير القرآن المجيد) يمكنك أن تلعب بأصابعك فى الكمبيوتر ليطالعك المعنى الجديد لها ... إبتداء من خلق آدم عليه السلام وأصله الإغريقى . و" آدم " كلمة عبرية معناها الأرض الحمراء . ويقال من آديم الأرض ... وكان أديم الأرض أحمر اللون . وكذلك قصة إمراة لوط التى تحولت إلى كتلة من الملح بسبب إنفجار جاء عقب إرتطام سفينة فضاء زلزلت المنطقة وأغرقت وأحرقت بعض المدن فى ذلك الوقت مثل مدينتى سادوم وعامورة .

وأخيرا ظهر عالم جيولوجى نمساوى إسمه الأستاذ **الكسندر تولمان** . يقول الأستاذ تولمان أن **الطوفان الذى أغرق الأرض قد جاء نتيجة تساقط بقايا نيازك ... هذه البقايا وقعت فى المحيطات فأغرقت الأرض إلا قمم الجبال** . وهذه النيازك جاءت من **كوكب المشترى** [٢٤] ... وظلت تتطوح فى المسافة التى هى (٦٠٠) مليون كيلومتر ، ودخلت الغلاف الأرضى بعد أن مزقت طبقة الأوزون وبعد أم ملأت الجو إشعاعا نوويا . وعنده ــ أى عند هذا العالم ــ أدلة على ذلك من وجود مادة (الكربون ــ ١٤) الإشعاعية فى كثير من الحفريات النباتية والحيوانية ... وأن ذلك قد حدث من (١٢) ألف سنة .

---

[٢٣] جريدة الأهرام بتاريخ ٣٠ / ٤ / ١٩٩٦ . تحت عنوان " **مواقف** " ، للكاتب المصرى " **أنيس منصور** " .

[٢٤] فى الواقع ؛ لا تأتى هذه النيازك من كوكب " **المشترى : Jupiter** " ، فالكوكب نفسه ليس مصدرها ، ولكن المعروف أن (٦٠ %) من النيازك ذات الدورات الزمنية القصيرة ، والتى يتراوح مدتها بين (٣, ٣ إلى ٩) سنوات ، تتأثر بشكل مباشر بجاذبية كوكب المشترى (أكبر كواكب المجموعة الشمسية) . ولهذا يطلق عليها أنها من " **عائلة المشترى** " . وبديهى ؛ لا يعنينا هنا تشخيص مصدر هذه النيازك ، ولكن ما يعنينا هو سير الحدث نفسه ، وهو ما يفيد من أن فيضان " **نوح** " ــ عليه السلام ــ قد نتج عن سقوط نيزك أو عدة نيازك فى أحد المحيطات أو حتى فى عدة محيطات فى نفس الوقت .

وكما رأينا سقوط مذنب " **شوماكر ــ ليفى** " على كوكب المشترى نفسه ، فلابـــد أن مذنبـات ونيازك أخرى قد سقط بعضها على كوكب المشترى ، والباقى تشرد فى الفضـــاء ، أو ابتلعتـه جاذبية الشمس أو نجوم أخرى أو كوكب الأرض ...

ومن المعلوم أن مذنبا ضخما قد سقط على الأرض من ٦٠ مليون سنة فاجتاحت لنيران كوكـب الأرض فقضت على الديناصورات وكثير من الحيوانات الكبيرة والصغيرة والحشرات والنباتـات ... ويرى الأستاذ تولمان أن اخر هذه النيازك أو الأحجار الضالة فى الكون ــ والتى لابـــد أن تعود إلى الارض بعد ألف سنة ــ هو الذى سقط فى سيبيريا سنة ١٩٠٨ ؛ واحرق مائة كيلـــو متر مربع من الغابات وأضاء سماء أوروبا شهورا . وهناك رأى آخر بأن الـذى سـقط علـى سيبيريا هو أحد الثقوب السوداء ... وأن هذا الثقب فى حجم حبة الترمس ، وأنه اخترق الكـــرة الأرضية وخرج من الناحية الأخرى ، وأن وزن هذا الثقب شديد الكثافة لدرجة أنه يزن ملايـين الأطنان ! ويحدد الأستاذ **تولمان** طوفان نوح بأنه وقع بالضبط سنة ٩٦٠٠ قبل الميـــلا . والله أعلم "

(إنتهى)

وفى هذا الفكر نرى أن القصص الدينى الوارد ذكره فى الكتاب المقدس ــ الخاص بديانة هـــذا العالم الباحث ــ (وبديهى ؛ ما يناظر هذا الفكر ما ورد ذكره فى القران المجيد) حول طوفـان **نوح** وخلق آدم وخلافه إنما هى أفعال للطبيعة باسلوب نمطى ، أو اسلوب يجرى تلقائيا بـدون الحاجة إلى تدخل " الله " لحدوثها . بينما الفكر الإنسانى البسيط أو الساذج ؛ يمثـــل المحاولـة المبذولة من جانب الإنسان لإسباغ الدور الإلهى على ما يجرى حدوثه بالفعل فى طبيعة مكتفيـة بذاتها ، دون حاجة ما إلى إقحام الإله ــ عنوة ــ فيها . فهى أحداث نمطية تخضـــع لقوانيـن فيزيائية تجرى بتلقائية شديدة دون حاجة ما إلى إله ...!!!

وبديهى فإن عنوان هذا البند " ***الظاهر والباطن ... والتوقف عند ظاهر الفعل*** " ... كـــان يكفى للرد على مثل هذا الفكر . أو بمعنى آخر يكفى عنوان : " ***... والتوقف عند ظاهر الفعل*** " للرد على مثل هذا الفكر ، إلا إننا يجب أن نتناول هذا الرد بشىء من التفصيل . ونبدأ هـــذا الرد **بموقف** قد يبدو فى ظاهره بأنه ليس له علاقة ما ــ مـــن قريـب أو بعيـد ــ بالقضيـة المعروضة الان ...

ويجرى هذا الموقف بإلقاء النظر على حياة **محمد** (ﷺ) وما كان يحدث فيها . فقد كان رسول الله (ﷺ) محاطا على طول دعوته بالكافرين المتربصين به وبدعوته لإهلاكه هو ومن اتبعوه من المؤمنين . وبديهى ؛ إن كان هناك **تساؤل ما** .. سوف يحدث بين محمد (ﷺ) وبين **كفار مكة** ، الذين يريدون إهلاكه هو واتباعه ، فمن المتوقع أن يجرى مثل هذا التساؤل على النحو النمطى المألوف ــ لدينا ــ كالنحو التالى ...

قل أرأيتم إن أهلكتمونى ومن معى ، فمن يجيركم من عذاب الله الأليم ... ؟؟!!!

فكهذا ظاهر الفعل .. **كفار مكة** يخططون ويدبرون لقتل **محمد** (ﷺ) ومن معه ؛ وفى محاولة من **محمد** (ﷺ) لتخويفهم من الله ، كان هذا التساؤل المطروح عليهم : **قل أرأيتم إن أهلكتمونى ومن معى** ..؟! ثم تأتى محاولة أخرى منه لتخويفهم : **فمن يجيركم من عذاب الله الأليم** ..؟! فيما لو أقدمتم على مثل هذا العمل أو الفعل ...

وبديهى أيضا أن مثل هذا التساؤل أو أى تساؤل آخر مشابه له ... يمكن أن يجرى على هذا النسق السابق ، عندما يدور بين أى فرد وبين أفراد اخرين يريدون قتله أو إهلاكه هو ومن معه .

ولكن أنظر إلى هذا التساؤل عندما يتم عرضه من المنظور الإلهى ، فالأمور هنا لا تتم أو تجرى بالمنظور الظاهر البسيط للفعل ، بل تتم بالإحاطة الحقيقية للحدث . لهذا نجد قوله تعالى **لمحمد** (ﷺ) لطرح هذا التساؤل على كفار **مكة** .. كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٨) قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٩) ﴾

(القرآن المجيد : الملك {٦٧} : ٢٨ ــ ٢٩)

فأين هم **كفار مكة** فى هذا النص الإلهى **﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللهُ وَمَن مَّعِيَ ..﴾** ..؟!! ففى الواقع ؛ ليس لهم وجود فى هذا الفعل الإلهى .. حتى وإن بدى لنا ولهم ــ بفكرنا القاصر ــ أنهم هم الذين يقومون بمثل هذا الفعل ..!!! فالمهلك الحقيقى هو " **الله** " ، فليس هناك من يجرى مشيئتة على مشيئة الله . فـ " الله " (ﷻ) وحده هو صاحب القرار الفعلى أو الحقيقى

.. فى تنفيذ الفعل أو إيقافه ، ولكن التنفيذ يجرى على أيدى من له حرية الفعل من العـــاصين .. وفى المساحة التى يحددها الله (ﷻ) سلفا ومن قبل . وليس هذا فحسب ، بل وما يسمح بـــه " الله " (ﷻ) فقط ؛ وذلك فى إطار فعله الكلى ؛ ليتقدم من يريد من العاصاة ليقوم بتنفيذ هـــذا الفعل بإرادته وبكامل إختياره ، ويعرض عن هذا الفعل ــ بداهـــة ــ المؤمـــن الـــذى يخـــاف المعصية ومن على شاكلته ، ولهذا كان قوله تعالى ــ للإنسان ــ فى هذا الشأن حول الإبتـــلاء بالشر [٢٥] :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَـــةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّـــرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً [٢٦] وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥) ﴾

(القرآن المجيد : الأنبياء {٢١} : ٣٥)

[**ونبلوكم** : نختبركم / **فتنة** : بمعنى أى لننظر فيما تفعلون فى هذه الحياة الدنيا]

فهكذا .. التوقف عند ظاهر الفعل يكون المُهْلك هم كفار مكة ، بينما الإمتداد لرؤية باطن الفعل ، نجده " الله " (ﷻ) هو " **المهلك الحقيقى** " ، فهو باطن الفعل ، والإنسان العاصى هو ظاهر الفعل . ولهذا كان قوله تعالى للبشرية العاجزة عن كمالاته الإلهية :

﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) ﴾

(القرآن المجيد : الحديد {٥٧} : ٣)

ثم نأتى إلى الفعل الآخر فى الآية الكريمة الأسبق وهو ﴿ .. فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .. ويُجار **كفار مكة** أيضا بصاحب الإجارة ، أو بصاحب الفعل الحقيقى أى بـــ " الله " أيضـــا

---

[٢٥] " **الحقيقة المطلقة : الله والدين والإنسان** " ؛ لنفس مؤلف هذا الكتاب ، بند : ١١ . ١٣ الإعـــتراض علـــى وجود الله بالنقص والشر فى الكون .

[٢٦] **المفهوم الرياضى المناظر لهذه الآية الكريمة** : هو أن لكل القيم السالبة (الشر) ، والقيم الموجبة (الخـــير) يوجد قيم مناظرة لـــ " **دالة الفتنة** " . أى أن **فتنة الإنسان بالشر والخير تتساوى من المنظور الإلهى** ، ولكن قيـــم الفتنة فى حالة الشر أكبر منها فى حالة الخير لهذا التقديم فى العرض . فالإنسان الغنى أو القوى أو مالك الســـلطة ، يملك طيف عريض من المعاصى لا يملكه الإنسان الفقير أو الضعيف أو فاقد السلطة . **ويتســـاوى فـــى هـــذا المفهوم الدول أيضا** ، بمعنى أن ترف الدول الغنية ، ومجاعات الدول الفقيرة كلاهما إبتلاء مـــن الله ــ ســـبحانه وتعالى ــ وكنتاج طبيعى من قوانين عليا تحكم سلوك الإنسان وقراراته . والإنسان ــ أى من يملك القـــرار فـــى الدول من كلا الجانبين ــ محاسب على ما تؤدى إليه قراراته من نتائج (خير أم شـــر) . **فـــ " الحيـــاة " مـــن المنظور الإلهى يوما دراسيا له مقرراته وإختباراته ونتائجه ... أدرك هذا الإنسان أم لم يدرك ...!!!**

.. وليس باخرين سواه ، ويحدث هذا بتجليات الرحمة الخاصة به ، كما جاء فى قوله تعالى : " .. **فمن يجير الكافرين من عذاب أليم** : ﴿ .. قُلْ هُوَ الرَّحْمَن [٢٧] .. ﴾ ولم تذكر صفة أخرى من صفاته أو كمالاته الإلهيه مثل : " **القوى** ، **العزيز** ، **العفو** ، **السلام** ، **الودود** .. " إلى اخر هذه الصفات أو الكمالات الإلهية ، لأن إجارة الكافرين لن تتم ــ هنا ــ إلا بجانب من جوانب رحمة الله (ﷻ) المطلقة . كما لم تذكر أيضا ــ فى الآية الكريمة ــ صفة " **الرحيم** " ؛ لأن كفار مكة لا يستحقون الرحمة ؛ ولكن يتم رحمتهم بتجليات رحمته المطلقة ، أى مصدر الرحمة بسعتها وشمولها ، ولهذا تأتى صفة " **الرحمن** " ، فبهذه الصفة فقط يمكن أن يجار كفار مكة من العذاب نتيجة هذا الفعل .

ونعود الآن ــ بعد هذه المقدمة ــ مرة أخرى إلى إكتشاف عالم الجيولوجيا النمساوى الأستاذ **الكسندر تولمان** ، الذى يقول أن " **طوفان نوح** " (عليه السلام) قد نتج عن سقوط نيزك من السماء أدى إلى هذا الحدث . فكما نرى أن ظاهر الفعل ــ كما يقول الأستاذ **تولمان** ــ هو **هبوط نيزك من السماء فى المحيط** ..!!! مما سبب فيضان الماء على اليابسة ... **أى مجرد كارثة طبيعية لا دخل للفعل الإلهى فيها** ..!!! ولكن دعنا ــ الآن ــ نتعدى ظاهر الفعل إلى باطن الفعل ، أى إلى محرك النيزك وباعثه .. فيكون الفاعل للفيضان هو الله (ﷻ) .. سواء كان هذا الفيضان حادث بفعل نيزك أو بفعل ظاهرة طبيعية آخرى هو خالقها ، فتعدى ظاهر الفعل إلى باطنه هو ما ينبهنا له الفكر الإلهى المحيط فى قرآنه المجيد . فالإرادة الإلهية تنفذ بالقانون الفيزيائى المسخر لهذا . تماما كما يستعمل الإنسان آلة ما " كبولدوزر مثلا " هو صانعها فى هدم مبنى ما . فبديهى ؛ أن القائم بهذا الهدم هو الإنسان وليس البولدوزر .

كذلك " الله " (ﷻ) ينفذ قدره فينا ــ نحن بنى البشر ــ من خلال قوانين سرمدية هو خالقها ، مثل الكوارث الطبيعية .. والأمراض .. والشيخوخة .. وخلافه . وأؤكد مرة أخرى على التماثلية هنا : بين " **الإنسان وآلته** " وبين " **الله ــ سبحانه وتعالى ــ وقانونه الطبيعى** " مع الأخذ فى الإعتبار الفارق الغير محسوب لأننا وآلتنا من ضمن القانون الطبيعى ..!!!

ولبيان ذلك ؛ **دعنا ننظر إلى هذا الحدث كما جاء ذكره فى القرآن المجيد** ، أى بعد أكثر من (أربعة عشر قرنا) من نزول القرآن المجيد على محمد (ﷺ) ، وبعد تقدمنا العلمى الكافى

---

٢٧ " الرحمن " هو الذى الرحمة صفته ووصفه ، فهى هنا للسعة والشمول . تماما كما نقول غضبان أى الممتلىء غضبا ، ونديمان وحيران وسكران ولهفان لمن ملىء بذلك الصفة ، فبناء " فعلان " للسعة والشمول .

الذى سمح لإستاذ مثل " **طولمان** " أن يقدم لنا مثل هذه الدراسة التى تثبت وقوع مثل هذا الحدث على هذا النحو ، حتى يتحقق قوله تعالى فى قرانه المجيد :

﴿ لِكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٦٧) ﴾

(القران المجيد : الأنعام {٦} : ٦٧)

ليكون " **الأستاذ طولمان** " صاحب هذه الدراسة ، هو فى واقع الأمر مسخر (بدون أن يدرى) من " الله " (ﷻ) لتقديم مثل هذه الدراسة ..!!! ***والآن ؛ إلى الحدث من منظور القرآن العظيم ..***

لقد استنفذ " **نوح** " (عليه السلام) كل ما يمكن عمله نحو دعوة قومه للإيمان بالله ، وتنبيههم إلى وجود الغايات من خلقهم حتى يتحقق لهم نيل الخلاص والسعادة الأبدية .. لهذا نجده يقول :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ﴾

(القران المجيد : نوح {٧١} : ٥ – ٧)

وهكذا ؛ بلغ " **نوح** " (عليه السلام) درجة اليأس من إيمان قومه (بعد خمسين وتسعمائة سنة ــ على ما نصه القران ــ أقامها فيهم يدعوهم للإيمان بالله ، ولا يألوهم نصحا) . وهنا يصبح دعائه على قومه أمرا حتميا ...

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) ﴾

(القران المجيد : نوح {٧١} : ٢٦ ــ ٢٧)

[**لا تذر على الأرض** : لا تبقى على الأرض / **ديارا** : من يدور فيها ، فيجيء ويذهب]

فترك هذا الكافر أصبح خساره على ما بعده ..!!! ولهذا يأتى الفعل الإلهى بعد أن استنفذت الدعوة كل السبل الممكنة .. فى قوله تعالى :

﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ (٣٧) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩) حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠) ﴾

(القرآن المجيد : هود {١١} : ٣٦ ــ ٤٠)

[**بأعيننا ووحينا** : برعايتنا لك وتعليمنا لك ــ بالوحى ــ بكيفية صنع السفينة / **التنور** : الفرن الذى يخبز فيه والجمع : **تنانير**]

ونأتى إلى المعانى : ﴿ .. **فَلا تَبْتَئِسْ** .. ﴾ يا نوح .. أخذا بالجانب النفسى له أى لا تحزن ﴿ .. **بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** ﴾ . ثم نأتى إلى قوله تعالى : ﴿ **حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا** .. ﴾ أليس هذا معناه إذا ما جاء قدر الله (ﷻ) بالحدث ، أو أمر " الله " للنيازك بالتساقط على الأرض فى المحيطات . ﴿ .. **وَفَارَ التَّنُّورُ** .. ﴾ **والتنور ــ فى اللغة العربية ــ هو قلب الفرن** أى النار المتقدة ...!!! " ... **وفار التنور** ... " إنما تعنى أن **الحمم** قد إندفعت من باطن الأرض وهى تغلى فى درجات حرارة خيالية ، لتحيل الماء إلى بخار يدفع بالماء من المحيطات بقوة هائلة ليحدث مثل هذا الطوفان [٢٨] الفريد على الأرض الذى يقضى على الكفار من قوم نوح بعد أن يئس نوح من إيمانهم ... ولهذا كان وحى الله (ﷻ) لنوح عليه السلام بـ ﴿ ... **أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ** .. ﴾ .

وبديهى لن يتسنى وجود النار مع وجود الطوفان (المائى) إلا بحدث مثل هذا ، وهو سقوط نيزك أو نيازك على المحيط واختراقه للقشرة الأرضية أو أن هذا النيزك قد تسبب فى حدوث شرخ أو تصدعات قشرية فيها مما أسفر عنه إندفاع الحمم الملتهبة (The Lava) من

---

[٢٨] التفسير المعتاد الشائع لهذه الآية الكريمة هو : أن الماء جاء بقوة فائرا ذا رغوة ، كالماء الذى يغلى فوق النار . فلم يتطرق أحد المفسرين من قبل ــ على حد علم الكاتب ــ لمثل هذا التفسير المذكرر أعلاه . [أنظر " **المنتخب فى تفسير القرآن الكريم** " المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ؛ الطبعة السابعة عشر ؛ ص : ٣١٤] . ومثل هذا التفسير يعنى التشبيه فحسب .

باطن الأرض إلى ماء المحيط مما تسبب عنها تبخر الماء المجاور لها ونتج عنها هذا البخار ذا الضغط الهائل الذى دفع الماء بمثل هذا الطوفان الذى لا مثيل له [٢٩] .

وهكذا يأتى دليل صدق على ما أخبر به المولى (ﷻ) الإنسان بعد خمسة عشر قرنا من الزمان منذ نزوله على محمد (ﷺ) . " ***وهكذا يصبح دليل يساق للتدليل على كذب قضية دينية معينة ، هو نفسه دليل الصدق على نفس القضية ... سبحان الله ...!!!*** "

فيا لضعف الإنسان وضحالة علمه ...!!!

ولابد لى أن أنبه ــ هنا ــ جيدا ، إلى أن ماسبق ذكره لا يعتمد على تفسير عالم الجيولوجيا **ألكسندر طولمان** لهذا الطوفان ، فالايات السابقة لا تحتمل التفسير بغير هذا المعنى ولكن ما قاله **ألكسندر طولمان** لم يزد عن تحقيق ما سبق وقاله الوحى إلى محمد (ﷺ) لتبليغ البشرية العاجزة به . وهكذا يصبح واضحا أن ...

﴿ لِكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوفَ تَعْلَمُونَ (٦٧) ﴾

(القران المجيد : الأنعام {٦} : ٦٧)

وهو ما يعنى بأن كل خبر جاء به القران المجيد له الوقت الذى يتحقق فيه . فقوله تعالى : ﴿ **لِكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ** ... ﴾ يفيد بأن التثبت من القضايا العلمية سوف يأخذ الوقت الكافى حتى تستقر فيه القضية العلمية على صورتها النهائية الصحيحة لها ، وعندئذ سوف يعلم الإنسان صدق ما جاء به القران المجيد .

وهكذا يثبت " صدق هذا الوجود المطلق " ، كما يصبح " **القرآن المجيد** " دليل صدق على " الغايات من الخلق " ، وما ينتظر ذلك الإنسان الضال من مصير لا سبيل لتفاديه ...

---

٢٩ بديهى ، يمكن أن يتم هذا الحدث بسقوط النيزك فى الماء ، بدون الحاجة إلى أحداث شرخ فى القشرة الأرضية أو خلافه ، وبالتالى لن يحدث اندفاع للحمم البركانية فى الماء . وفى هذه الحالة سوف يكون دور النيزك الساقط والملتهب معا فى الماء هو نفس دور الحمم البركانية نظرا لالتهابه ، كما يؤدى حجم النيزك إلى مضاعفة حجم الماء المندفع كناتج طبيعى من إزاحة النيزك للماء . وبديهى أيضا ، يمكن أن يتم هذا الحدث بدون الحاجة إلى اصطدام نيزك أو خلافه بالأرض ، وذلك بثورة بركانية لأحد البراكين الموجود بالفعل تحت سطح الماء . وبديهى هذه التفسيرات لا تخل بالمعنى النهائى ، نظرا لاجتماع الحمم والماء فى جميع الاحوال ، وهو ما جاءت به الاية الكريمة .

﴿ ... لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥) ﴾

(القران المجيد : النساء {٤} : ١٦٥)

فالقضية ــ إذن ــ هى قضية قصور إدراك الإنسان ذاته ومقدرته علـــى الفـــهم . ويتضـــاءل الإنسان فى كل ما يعرف ... وفى كل ما يعى ...!!! فهذا هو حقيقة ضعف الإنسان وتناهيه ، حتى إنه لا يدرك قوله تعالى ...

﴿ ... وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩) ﴾

(القرآن المجيد : النحل {١٦} : ٨٩)

[**ونزلنا عليك** : يا محمد / **الكتاب** : القرآن المجيد / **تبيانا لكل شىء** : لبيان كل شىء فى هذا الوجود]

كما لم يدرك قوله تعالى ...

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨) ﴾

(القرآن المجيد : ص {٣٨} : ٨٧ - ٨٨)

أى أن إدراك معانى القران المجيد ، لن يتأتى إلا مع تقدم الحضارة البشرية ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ وهو ما يؤدى إلى فكر " **البرهان الحركى أو البرهان الدينـــاميكى The dynamic proof** " فى القرآن المجيد ، كما سبق ذكره فى الكتاب السابق .

وهكذا يتوقف الإنسان ــ ذلك العليل ــ عند ظاهر الفعل ، أى عند الفعل نفسه ... وعند الظاهرة الطبيعية ... وهو لا يدرك أن " الله " :

﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) ﴾

(القران المجيد : الحديد {٥٧} : ٣)

وصدق الله العظيم فى قوله تعالى ...

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) ﴾

(القران المجيد : فصلت {٤١} : ٥٣)

٤. ونظرات حول عجز وقصور العقل البشرى

وأخيرا نعرض إلى نوع اخر من أنواع الفكر **التأملى البرّاق والزائف معا** وإن كان لا يخلو من بعض الحقائق ، ولكن أخطاءه تمثل عجز وقصور العقل البشرى عن إدراك الحقائق الكونية الكلية . وينتج عن هذا الفكر القناعة التامة بالجهل ، ثم التسليم بهذا مع إحباط الإنسان بعدم جدوى السير فى استكناه حقائق الأمور ، ويمثل هذا الفكر الكاتب البلجيكى الكبير " **موريس ميترلنك** : **Maurice Maeterlinck** [٣٠] " والحائز على جائزة نوبل فى الأدب ... حيث نجده يقول :

" إننا نتحرك مخدوعين لأننا نرى ونعى كل ما لا يمكن الإستغناء عنه فى حياتنا الصغيرة ، وكل ما عدا ذلك ــ وهو كل شىء تقريبا ــ فإن حواسنا لا تحول فحسب بيننا وبين الوصول إليه أو رؤيته أو إدراكه ، بل تنفى عنا أيضا إفتراض ماهيته ، وتمنعنا من أن نفهم منه شيئا حتى لو حاول أى ذكاء من مستوى اخر أن يكشف لنا عنه أو يفسره لنا . فعدد الألغاز وحجمها غير محدود بقدر إتساع الكون نفسه . فلو اقتربت الإنسانية يوما ما من حلول أعظم الألغاز التى تبدو لها وأعصاها على الحل ، مثل **مصدر الحياة وهدفها** ... وهى الألغاز التى تقف اليوم كجبال أزلية ، فإن الإنسانية سترى من وراء هذه الجبال قد برزت جبال أخرى ، ستكون مثلها فى ضخامتها وتعذر إرتقائها ... وهكذا الحال إلى مالانهاية .

وبالنسبة إلى ما ينبغى معرفته للإمساك بمفتاح هذا العالم ، سيوجد دائما فى نفس المكان الذى إنتهينا إليه جهل مركزى ، وستكون الحال على نفس المنوال ... حتى لو كان هناك ذكاءا أكثر إتساعا ونفاذا بملايين المرات من ذكائنا ... فكل ما سيكشفه هذا الذكاء المتزايد فى قدرته بشكل

---

[٣٠] **موريس ميترلنك** : **Maurice Maeterlinck** ؛ كاتب بلجيكى حاز على جائزة نوبل فى الأدب عام ١٩١١ ، عن أعماله فى الدراما .

عجيب سيتعثر بحدود ليس إجتيازها أيسر من إجتياز الحدود الحاضرة . فكل شيء لا حدود لـه فى كل مالا حدود له .. وهكذا سنظل السجناء الخالدين إلى مالا نهاية له .

وبالتالى فإن من المحال أن ندرك بأية درجة كانت ــ حتى ولو كانت أصغر الدرجات المتصورة ــ الحالة الحاضرة للكون . وأن نقرر طالما كنا ادميين .. ما إذا كان الكون يتبع فى مساره خطا مستقيما أم يرسم دائرة لا قياس لها ، وما إذا كان يسير نحو حكمة متزايدة أو نحو اضطـــراب متزايد ، وما إذا كان يزحف نحو الأبدية التى لا نهاية لها ، او يعود قافلا نحو ماض لم تكن لـه بداية .. فكل ما سمح لنا بمعرفته فى مقرنا الضئيل هذا .. هو أن نبذل قصارى وسعنا نحو مـا يبدوا لـنا أفضل ، وأن نقيم كأبطال مقتنعين أنه لا يمكن أن يضيع هدرا أى شيء مما نفعلـه الآن "

(إنتهى)

ثم يستطرد ميترلنك قائلا عن رأيه فى علاقة ذلك كله بالموت فيقول ...

" إن هذا هو تقريبا ما يجوز تأكيده الآن للروح القلقة إزاء الفضاء الذى لا يمكن سبر غـــوره ، والذى سيلقيها الموت فيه قريبا ، وعلى ذلك فيمكنها أن تؤمل أن تجد فيه كل ما كانت تحلم به . ولعلها ستخاف منه بقدر أقل مما كان يرهبها سابقا . وإذا كانت الروح تفضـــل أن تبقـى فـى الإنتظار فى الدنيا والحياة المادية ، فإنه ــ مع ذلك ، يبدو عسيرا للروح أن ترفض بالأقل قبـول هذا التأكيد العظيم الذى يعثر عليه القارئ فى صميم أى من هذا الإفتراضات ؛ وهو أن **الفضـاء اللانهائى** [31] لا يمكن أن يريد بنا شرا ، بالنظر إلى أنه إذا ما عمد إلى تعذيب أقلنا شأنا تعذيبـا أزلـيا ، فإنه سيعذب " شيئا " لن يمكنه أن ينتزعه من نفسه [32] ، وبالتالى سوف يعذب نفســه بنفسه .

---

[31] نلاحظ هنا أن معنى " الله " (ﷻ) فى فكر الكاتب لم يتجاوز معنى ومفهوم " **الفضاء اللانهائى** " علـى الرغم من أن الكاتب كان يعيش فى بيئة مسيحية خالصة ؛ مما يؤكد على عدم احتواء العقيدة المسيحية ، لفكـره على وجه التخصيص ، والفكر البشرى على نحو عام . (أنظر " **الحقيقة المطلقة ... الله والدين والإنسـان** " ؛ لنفس مؤلف هذا الكتاب)

[32] نلاحظ هنا أيضا أن الكاتب يؤمن بمذهب " **وحدة الوجود** " وهو المذهب الذى نادى به الفيلسوف ــ اليهودى ــ الهولندى " **باروخ إسبينوزا : Baruch Spionoza** " (١٦٣٢ ــ ١٦٧٧) . ومذهب " **وحدة الوجـود** هـو المذهب الذى يقول بأن " الله " هو مجموعة الموجودات . أو بمعنى اخـر أن " الله " هـو الكـون وموجوداتـه ومخلوقاته ما ظهر منها وما بطن . **أى أن الموجودات والمخلوقات ومنها الإنسان هى المكونـات الأوليـة ، أو الأعضاء التى يتركب منها الله** . وهذا المذهب هى فكر مرفوض فى الديانة الإسـلامية ، ولا يوجـد أيـا مـن النصوص القرانية تؤدى إلى مثل هذا المعنى . كما لا يقر الإسلام أى مذهبا اخرا يقول بحلول الله فـى جسـد إنسان ، كما لا يقر المذهب القائل بفناء الذات الإنسانية فى الذات الإلهية . (أنظر المرجع السابق)

ولم أضف شيئا إلى ما كان المرء يعرفه من قبل ، ولكنى حاولت بكل بساطة أن أفصل ما يمكن أن يكون صحيحا عما لا يمكن بالتاكيد أن يكون كذلك ، لأنه إذا ما جهل المرء أين توجد الحقيقة ، فإنه ــ مع ذلك ــ يتعلم أن يعرف أين لا توجد هذه الحقيقة . ولعلنا بالبحث عن هذه الحقيقة التى تأبى أن نعثر عليها [٣٣] نكون قد عودنا أعيننا أن تخترق محنة الساعة الأخيرة بالتطلع إليها فى ثبات . وبغير أدنى ريبة توجد أشياء كثيرة يمكن قولها ، وسيقولها لخرون بطريقة أكثر قوة وبريقا . ولا تدعونا أن نؤمل أن أى إنسان على هذه الأرض يقول الكلمة التى تحسم شكوكنا [٣٤] ، **فإنه من الراجح جدا أن أى إنسان فى هذا العالم ، وربما فى العالم الآخر ؛ لن يكشف لنا لغز الكون الأعظم** . وإذا ما فكرنا مليا فى ذلك وجدنا أن السعادة المفرطة هى أن يكون الأمر كذلك . فإنه علينا أن ليس فحسب أن نتنازل عن عن الحياة فيما لا يمكن إدراكه من أمور ، بل علينا أيضا أن ننعم بالعجز عن الخروج من هذه الأمور [٣٥] .

وإذا لم تعد بعد أية أسئلة لا تلقى جوابا ، وأية ألغاز لا يمكن كشفها ، فالانهائى لن يصبح لانهائيا بعد ، وعندئذ علينا أن نلعن ــ وللأبد ــ المصير الذى ألقى بنا فى عالم محدود بحدود ذكائنا ، وسيصبح كل شئ بعدئذ عبارة عن سجن بغير منافذ وشر وخطأ لا يمكن إصلاحه . فما لا نفهمه ، وما يعصى على فهمنا لازم لسعادتنا وسيبقى الأمر كذلك .

وعلى كل حال فإننى لا أتمنى لأسوأ أعدائى ــ حتى ولو كان تفكيره أسمى مائة مرة من تفكيرى وأقوى ــ أن يقضى عليه بأن يحيا للأزل فى عالم يكون قد باغت فيه سرا رئيسيا ، وبوصفه إنسانا يكون قد بدأ يفهم شيئا " [٣٦] .

(انتهى)

---

[٣٣] فى الواقع يحول دون إدراك المرء للحقيقة عوامل كثيرة منها : أولا : عدم إخلاص النية فى طلب المعرفة فى هذا الإتجاه ، ثانيا : الجهل أو عدم الإقتناع بوجود " **حقيقة مطلقة** " ، ثالثا : التمسك بالوثن القديم ، رابعا : وجود الوعى الإجتماعى الذى يحتم مجاراة الآخرين .. إلى آخر هذه العوامل . (لمزيد من التفاصيل الظر المرجع السابق)

[٣٤] هنا يصل اليأس مداه مع الكاتب فى أن يجد من يقول له الكلمة الفصل التى تحسم شكوكه .. وشكوك البشرية معه ..!!! وبديهى ــ وكما هو واضح من سياق كلماته ــ أن الكلمة الفصل لن تأتى من ذكاء بشرى ، ولم يتنبه **موريس ميترلنك** أن الكلمة الفصل سوف تأتى ــ أو بمعنى أدق ــ قد أتت فعلا من الخالق ، سبحانه وتعالى ، فى صورة الديانة الإسلامية .

[٣٥] هنا يصل فلسفة العجز إلى منتهاها لديه .. وبدلا من البحث عن المعرفة ، بعد أن يأس من وجودها يحاول الكاتب الان أن يسعد نفسه بهذا الجهل ..!!!

[٣٦] وهو ما يعنى الحث الواضح والصريح على الجهل ..!!!

فهذا هو غاية الوعى الفطرى الذى تكلم به **موريس ميترلنك ــ والحائز على جائزة نوبل فــى الأدب والدراما** ــ إنه الخوف والرجاء والإستجداء نحو طلب المعرفة من ذكاء اخر ، وهــى المعرفة المستحيلة على الجنس البشرى والتى لا سبيل للوصول إليها بذكائنا المحدود هذا .. ولما يأس ــ ميترلنك ــ من إدراك هذه القضية ــ غلبت عليه الصبغة التشاؤمية ــ وتعــايش مــع اليأس وأصبح له الجهل سعادة ... كما أصبح لا غنى ــ من وجهة نظره ــ عن الجهل بديــلا لسعادة الإنسان ..!!! مسكين ذلك الإنسان الحائر ..!!!

﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لاَ يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا ءايَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلاْ سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٥) أءذَا مِتْنَا وَكُنَّــا تُرَابًا وَعِظَامًا أءنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَءابَاؤُنَا الأوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (١٩) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) ﴾

(القران المجيد : الصافات {٣٧} : ١٢ - ٢٠)

٥. و " عودة على بدء " وكلمة عن التصور الساذج لمفهوم الدين والعمل ..

وتبقى كلمة أخيرة ــ خاطئة ــ عن التصور الساذج لمفهوم الدين والتدين والعمل . وهــى كلمة ــ عادة ــ ما يرددها العلمانيون ، وهذه الكلمة هى إحدى أحد الذرائع التى يستندون إليــها عند رفضهم للدين حيث نجدهم يقولون على سبيل المثال :

*"عندما كان الناس يؤمنون بأن محاصيلهم هبة من اله الزرع أو الخصب كانوا يركــزون جهودهم فى الصلاة لذلك الإله ويتركون زرعهم تحت رحمته ؛ أما عندما أصبحوا يؤمنون بــأن جودة محاصيلهم تتوقف على ما يبذلونه فيها من جهد فإن نشاطهم **تحول من الصلاة إلى الزرع إلى رعاية الأرض وتعهد النبات*** [٣٧] . وهكذا يؤدى تغيير طريقة التفكير النظرى فى الأشــياء الى تغيير فى طريقة التعامل مع هذه الأشياء [٣٨] "*

---

[٣٧] لاحظ هنا : ان النص لا يجمع بين العمل والتدين ؛ **فإما العمل وإما التدين ...!!!**

[٣٨] **علمانيون أم ملحدون** ؛ محمد ابراهيم مبروك . دار ثابت للنشر ؛ ص : ١١٣ . وهــى مــأخوذة عــن **نظرية المعرفة والموقف الطبيعى للإنسان** ؛ د. فؤاد زكريا .

صياغة خاطئة لمفهوم الخالق ومفهوم الدين معا ..!!! وهذه الصياغة هى أحد الامثلة الخاصة لمفهوم أعم وأكثر شمولا ، تقول به الفلسفة الوضعية الملحدة (أو المذهب الواقعى) ؛ حيث نجد معتنقيها يقولون :

" إن قوانين العلم التجريبى تغنى عن الإيمان بالله ، وأن هذه القوانين تدل على أن الطبيعة لها وجود مكتف بذاته"

وبديهى يمثل هذا الفكر نظرة خاطئة للدين ، وليس هذا فحسب ، بل يمثل ــ أيضا ــ عدم فهم لدور الدين فى حياة الإنسان . **فالدين ليس دُعاءًا ــ لإله ــ وبلا عمل ، بل الدين حسابا على ما يؤديه الإنسان من أعمال** . فالعمل أساسى فى الدين إلى الحد الذى يأمر به الخالق (ﷻ) الإنسان ، كجزئية من تحقيق الإنسان للغايات من خلقه ...

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) ﴾

(القران المجيد : التوبة {٩} : ١٠٥)

فالعمل ــ إذا ــ مطلوب فى الدنيا ، وينعكس اثاره على الإنسان فى الاخرة . وليس هذا فحسب ، بل أن العمل هو أحد الغايات من خلق الموت والحياة للإنسان [٣٩] ، كما جاء فى قوله تعالى للإنسان :

﴿ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) ﴾

(القران المجيد : الملك {٦٧} : ٢)

وهكذا يصبح العمل هو من غايات الخلق ، فالحياة هى العمل والآخرة هى حصاد هذا العمل . لهذا يصبح إنكار العمل فى الدين (أى : *أما عبادة وإما عمل*) فى النص ــ العلمانى ــ السابق هو خطأ تشخيصيًا فى رؤية الدين والخالق معا . وبديهى يكون الخطأ ــ هنا ــ **خطأ بشريا وليس خطأ دينيًا** .

---

[٣٩] أنظر كذلك " **الفصل الخامس** من هذا الكتاب : البحث العلمى فريضة فى الديانة الإسلامية .

ولا نفاق فى العمل ولا نفاق فى عرض الأعمال فى الفكر الإسلامى ، فكلاهما مكروه وممقوت أشد المقت من الله (ﷻ) ... كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَالَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أن تَقُولُوا مَالَا تَفْعَلُونَ (٣) ﴾

(القران المجيد : الصف {٦١} : ٢ - ٣)

[كبر مقتا : عظم بغضا وكراهية إلى الله ، عز وجل]

فالعمل والقول فى الديانة الإسلامية ينبغى أن يدل على حقيقة واقعة لا مغالاة فيها .. كما وأن الثناء والتقدير المصحوب ينبغى أن يدل على حقيقة تشهد لنفسها .. كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨) ﴾

(القران المجيد : ال عمران {٣} : ١٨٨)

[لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ... : من أفعال قبيحة ويحبون الثناء بما لم يفعلوا ...]

ولا يوجد فى الإسلام وسيلة للتقرب إلى الله (ﷻ) زلفى إلا الإيمان والعمل الصالح فقط ... كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ ءامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِى الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ (٣٧) ﴾

(القران المجيد : سبأ {٣٤} : ٣٧)

[زلفى : قربة / جزاء الضعف : أى الجزاء المضاعف ، الواحدة بعشرة أمثالها ، وفى سبيل الله سبعمائة ضعف / الغرفات : كلمة شاملة ، تعنى أعالى الجنان]

وبعد هذه المقدمة عن العمل فى الإسلام ، دعنا نعود مرة أخرى لقول العلمانى الساذج والبسيط السابق ، والذى يعتقد بأنه هو الزارع الحقيقى للأرض . نعود لهذا العلمانى الغافل الذى لا يرى إلا رؤية قاصرة ومحدودة ... لنؤكد له ... بأنه ليس هو الزارع الحقيقى للأرض ... بل هو الله (ﷻ) ، فنحن نحصد ما قدره الله لنا وللنبات من قوانين بيولوجية عامة لا دخل لنا ولا للنبات فى وجودها . فمن منا له دخل فى القوانين الطبيعية التى تتحكم فى نمو النباتات

وسقوط الأمطار ونشوء النار ... إلى اخره من هذه الظواهر الطبيعية ... لهذا كان تساؤل المولى (ﷻ) لهذا الإنسان الغافل فى قوله تعالى :

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) ﴾

(القران المجيد : الو قعة {٥٦} : ٦٤ – ٧٠)

[**حطاما** : هشيما متكسرا لا ينتفع به / **تفكهون** : أى تعجبون من سوء حال زرعكم ومصيره / **لمغرمون** : مهلكون بهلاك رزقنا / **محرومون** : ممنوعون الرزق كلية / **المزن** : السحاب / **جعلناه أجاجا** : جعلناه ملحا زعاقا أو مُرا لا يُمكنْ شربه / **تورون** : التى تستخرجونها]

فهكذا الإنسان الذى لم يتنبه إلى قوله تعالى : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا ... ﴾ ، **فمن الممكن أن نضع بذورا فى الأرض ولا تخرج شيئا ، أو تخرج هشيما متكسرا تذروه الرياح لا قيمة فيه** . كما لم يتنبه الإنسان إلى قوله تعالى : ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا . . ﴾ ، فلم يتنبه إلى انه كان من الممكن أن يتم تعديل القانون الطبيعى الخاص بالبخر لينزل المطر من السحب مالحا ، أو شديد الملوحة وليس عذبا كما هو الحال الآن . كما لم يتنبه الإنسان إلى قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ... أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ .. ﴾ فلم يتنبه إلى أن " الله " (ﷻ) هو الذى أنشأ سلسلة التفاعلات الكيميائية المختلفة التى ينتج عنها النار .

فالواقع ؛ أن الإنسان ليس سوى ذلك المستخدم لما أمدّه الله به من قوانين تحكم وجوده ووجود هذا الوجود بالتساو . أو أن الإنسان هو ذلك المستخدم لناتج قد صيغ له سلفا ، أو مُهّد له من قبل ، من قبلْ خالق قد أحاط بكل شىء علما . فـ " الله " هو " **الخالق** " للقانون الطبيعى ، كما هو الخالق لنا بالضبط . وتترى الايات العلمية السابقة لتنبه هذا الإنسان الغافل ... **إلى أن الخالق الحقيقى لهذه القوانين المنظمة لهذه العمليات الطبيعية ... هو الله** . ويعود بنا الخالق إلى المرحلة الأولى لعملية التكوّن الجنينى للإنسان ــ من نفس السورة السابقة ــ لينبه الإنسان الغافل بقوله تعالى ...

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَى أَنْ نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) ﴾

(القرآن المجيد : الواقعة {٥٦} : ٥٨ - ٦٢)

فمن مِنَّا ــ نحن ذلك الإنسان العاجز ــ من يخلق مَنِيَّه بنفسه الذى يتكون منه الإنسان ...!!!

إننا نحن ــ بنى البشر ــ نطفو فوق سطح محدود لمحيط علمى لا عمق له ، ولا نعلم من هذا المحيط إلا موجة سطحية رقيقة نسبح فيها بجهل ...!!! وهذا هو حال الإنسان الكافر الذى لم يتنبه إلى أن تناهى الفعل هو لله وحده لا شريك له ... والمتفرد بالوحدانية ذلك هو ...

﴿ ... اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦) ﴾

(القرآن المجيد : الرعد {١٣} : ١٦)

أى هو القادر على قهر الإنسان بما يريده ويبغيه ، ولكنها غايات من الخلق . وليس للإنسان علم يمكن أن ينسبه إلى نفسه أو إلى غيره .. فالعلم ينسب لله وحده .. يهبنا ما يشاء ، وليس لنا إلا ما أراد ..

﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) ﴾

(القرآن المجيد : الشعراء {٢٦} : ١٣٢)

فهو الذى يمدنا فى كل وقت بما نعلم ، ولكنه ينبه البشرية الغافلة بقوله تعالى :

﴿ ... وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلاً (٨٥) ﴾

(القرآن المجيد : الإسراء {١٧} : ٨٥)

وليس هذا فحسب بل ...

﴿ ... وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ (٢٥٥) ﴾

(القران المجيد : البقرة {٢} : ٢٥٥)

أى أن الإنسان على الرغم من هذا العلم القليل الذى منحه الله (ﷻ) له ، فلا يحيط من هذا العلم إلا بما يشاء الله . وهكذا يبقى جهل الإنسان هو الحائل الضخم الذى يحول دون رؤية الإنسان لواقعه الحقيقى من أنه ليس له من واقع الأمر شيئا . ولما كان الله ، سبحانه وتعالى كماله ، هو الزارع الحقيقى على الرغم من ظاهرنا البسيط فى العمل الحقل العلمى ، إذاً يبقى عطاء الزرع منوط بإرادة الزارع الحقيقى له ، أى منوط بإرادة " الله " (ﷻ) .

والآن ؛ إذا لم يعد العناية بالأرض يجدى .. وإذا لم تعد الأرض تخرج ما هو مقدر لها .. وإذا توقف الزرع عن العطاء ــ بعد الأخذ بكل أسباب العناية والرعاية ــ فليس للإنسان إلا الدعاء إلى من بيده الأمر ..؟!!! أى " **الدعاء إلى إله الزرع وإله الوجود المطلق** " ، ليطلق عطاءه لنا نحن بنى الإنسان الجاحد بنعمه علينا ، ولكن تبقى الإستجابه لنا لبيان دلائل الرحمة بنا ، وبيان دلائل القدرة علينا ... فيقول المولى (ﷻ) لرسوله الكريم ليخبر البشرية العاجزة ...

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦) ﴾ [٤٠]

(القران المحيد : البقرة {٢} : ١٨٦)

---

[٤٠] وتتوالى الأسئلة على الرسول (ﷺ) ليجيب عنها المولى وجل لبيانها للإنسان فى **أربعة عشر موضعا** فى القران المجيد بقوله تعالى .. " **قل** .. " منها ..

﴿ يَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُمْ مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ .. (٢١٥) ﴾ (البقرة {٢} : ٢١٥)

﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ .. (٢١٩) ﴾ (البقرة {٢} : ٢١٩)

﴿ وَيَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ .. (٢١٩) ﴾ (البقرة {٢} : ٢١٩)

﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى .. (٢٢٢) ﴾ (البقرة {٢} : ٢٢٢)

﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥) ﴾ (الإسراء {١٧} : ٨٥)

إلا فى هذا السؤال التالى :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ .. ﴾ (البقرة {٢} : ١٨٦)

فلم يقل المولى (ﷻ) لرسوله الكريم (**فقل إنى قريب ...**) ، وبهذا تنتفى الوساطة بين الإنسان وبين خالقه ، حتى وإن كانت هذه الوساطة للنبى (ﷺ) نفسه . ***أى لا كهانة ولا كهنوت فى الديانة الحقة ، فهى علاقة مباشرة بين الإنسان والخالق مطلوب من الإنسان إدراكها ، وهو ما يعنى تحقيق الغايات من خلق الإنسان .***

ويؤكد المولى ــ عز وجل ــ على رحمته بنا ــ ذلك الإنسان الجاحد ــ فى قوله تعالى :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ فِي الأَرْضِ أَإِلَـهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ [٤١] وَمَن يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) ﴾

(القرآن المجيد : النمل {٢٧} : ٦٢ - ٦٤)

ولكن ما موقف الإنسان بعد أن يستجيب الله لدعائه ...

﴿ فَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٤٩) ﴾

(القران المجيد : الزمر {٣٩} : ٤٩)

وهكذا يبقى جهل الإنسان وضيق أفقه هما الحائلان الحقيقيان اللذان يحولان دون رؤية الإنسان لكل هذا الحق المطلق ... لهذا لم يرى ما يجب أن يرى .. و ﴿ .. قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ .. ﴾ ، ولم يتنبه إلى قوله تعالى .. ﴿ .. بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ . فأين علم الإنسان .. **من هذه الحقائق المُدوّية** .. ولم أعد أدرى من أمور هذا الإنسان الغافل شيئا ..!!! فمتى سيتنبه ويفيق من غفلته ومن غيّهِ قبل أن تداهمه الحقيقة المطلقة ... وفى هذه الحالة عليه أن يدفع ثمن غفلته هذه وضلاله هذا ..!! ولهذا ينبهه المولى (ﷻ) بقوله تعالى :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ﴾

(القران المجيد : يونس {١٠} : ١٢ ١٣)

---

[٤١] وحتى لا يخطىء الحساب ، وحتى لا يظن الإنسان أنه الذى يهدى نفسه بنفسه باستخدام أجهزة تحديد المكان على سطح الأرض باستخدام الأقمار الصناعية وخلافه ؛ نقول بأن تحديد مكان الجسم على سطح الكرة الأرضية يستلزم وجود نقط مرجعية ثابته ــ كالنجوم الثابته مثلا ــ وذلك حتى يمكن الرجوع اليها لتحديد مكان الجسم على سطح الأرض . وليس هذا فحسب ، بل أن الأنظمة نفسها المستخدمة فى هذا الغرض ، هى ما أمدنا الله (ﷻ) وزودنا به كما سبق الإشارة الى هذا .

وتبقى رحمة الله (ﷻ) مفتوحة لعباده ... لتوحيد وجودة ... وتبقى دلائل القدرة ممتدة لمن يؤمن ومن لا يؤمن ... لعل من يجحد وجوده يتنبه ويدرك هذا الوجود ، ولكن تأتى النهاية بمن يصر على الجحود أن يدفعوا ثمن جحودهم هذا ...

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠) ﴾

(القران المجيد : غافر {٤٠} : ٦٠)

[**يستكبرون عن عبادتى** : يتعظمون عن إفرادى بالعبادة ، لأن الإنسان ــ فى واقعه ــ يعبد ... يعبد ، حتى وإن بدى أو خيل إليه غير ذلك / **داخرين** : صاغرين]

ليكون هذا شهادة صدق على قصور رؤية الإنسان وضعف إدراكه ، دلك الإنسان الظلوم لنفسه الجهول بحقيقة وجوده .... فهل وعى الإنسان ما يسمع ... أم أنه ختار هلاكه بنفسه . **والهلاك هنا له معنى القوانين السرمدية العليا التى نخضع لها ونحققها بدون أن ندرى . ونتحسسها ــ نحن بنى البشر ــ فيما يخبره المولى** (ﷻ) فى قرانه المجيد من أيات تنبهنا إلى ذلك لكى نتخطى هذه القوانين [٤٢] .

وعودة على بدء ..!!! ونعود ــ نحن ذلك الإنسان العاجز ــ صاغرا ... لنعيد ما قاله الغافلون منا ، من ذوى الرؤية القاصرة والعلم المحدود ، ولكن بصيغة حقة وببصيرة مؤكدة فنقول [٤٣] ...

" إننا ذلك الإنسان ــ العاجز ــ الذى يؤمن بأن المحاصيل هى هبة " الله " إله الزرع (وإله الناس وإله الوجود ، المدرك منه والغير مدرك) ، ولما كان العمل ، والبحث العلمى على قمته ، هو المدخل الطبيعى للعطاء الإلهى والإختبار الدنيوى لنا ، فقد اتجهنا إلى العمل وإلى البحث العلمى تأكيدًا لمبدأ تحقيق الغايات من الخلق ، وتمثل هذا العمل فى صور .. رعايتنا للأرض وتعهدنا للنبات ، وأصبح عطاء الله (ﷻ) لنا فى شكل جودة المحاصيل يتوقف على ما نبذله ــ فى الأرض ــ من جهد ونشاط ، ولكن ما زال عطاء الأرض ــ كله ــ منوط بقدرة

---

[٤٢] أنظر الفصلين : الخامس والسادس من هذا الكتاب .

[٤٣] **أرجو مقارنة هذا النص مع النص العلمانى الذى ورد ذكره فى أول هذه الفقرة .**

الله (تعالى) فينا ، إن شاء أعطى وإن شاء أمسك [٤٤] ، أى أوقف قانونه الطبيعى عن العمل ، وهو القانون الممثل لإرادته فينا وفى الأرض . وهكذا تؤدى تغيير طريقة التفكير النظرى فى الأشياء ونظرتنا للايمان وللدين ، إلى تغيير طريقتنا فى التعامل مع هذه الأشياء "

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (١٩) ﴾

(القرآن المجيد : الأنعام {٦} : ١٩)

صدق الله العظيم

---

[٤٤] وتكون " إن شاء أمسك " ــ هنا ــ بمعناها البسيط .. هو أن تتوقف الأرض ــ المعنية بالكلام ــ عن العطاء ، " وإن شاء أمسك " بمعناها العام .. هو أن يتوقف القانون الطبيعى المسئول عن الإنبات عن العمل ، وهو ما فيه هلاك للبشرية جمعاء .

obeikandl.com